

عالم جديد ممكن

الفاتحة: العدسة اللاصقة على العين المسلمة

د.أحمد خيري العمري



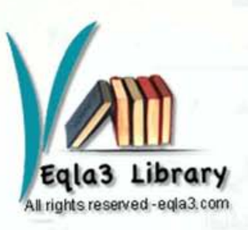


الدكتور
أحمد خيري العمري

(٣)

عالم جديد ممكن

الفاتحة، العدسة اللاصقة على العين المسلمة





بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(٣)

عالم جديد ممكن

الفاتحة . العدسة اللاصقة على العين المسلمة

عالم جديد ممكن:الفاتحة- العدسة اللاصقة على العين المسلمة / أحمد خيري العمري .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٦٨ ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ٣)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري
مكتبة الأسد



2011=1432

دار الفكر - دمشق - برامكة

٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

٣

عالم جديد ممكن

الفاتحة العدسة اللاصقة على العين المسلمة

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٦,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-68-9

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

١٦٨ ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١ / ٢٠٠٨م

المحتوى

عن فاتحة وضعت في غير موضعها..

إذا كانت الصلاة هي عماد الدين، فإن الفاتحة هي حتماً عماد الصلاة، فلا صلاة لمن لا فاتحة له، وهذا يجعلها في موقع قلب القلب من الجسم، أو المخ من الدماغ.. أو جوهر الجوهر - ليس من الصلاة فحسب - بل من الدين كله، باعتباره رؤية شاملة للحياة ووسيلة للحكم ومقياساً للأمور..

تمتلك الفاتحة إذن هذا الموقع الذي يجعلها ملازمة للصلاة، ففي كل ركعة هناك الفاتحة، مراراً وتكراراً، مرة تلو أخرى، من أول ركعة نتعلم من خلالها الصلاة إلى آخر ركعة نستطيع أن نؤديها قبل أن نغادر الحياة.. وهذا يجعلها، بالنسبة للمصلين على الأقل، السورة الأكثر تكراراً على الإطلاق.. بل إنه ربما يجعل من كلمات آياتها الكريمات مجموعة الكلمات الأكثر تكراراً في حياة الفرد المصلي..

* * *

ولأنها "المدخل" في الكتاب الذي هو آخر ما أنزل الله عز وجل، الكتاب الذي هو الفرصة الأخيرة للبشر لكي يقرؤوا.. لكي يكونوا ما خلقوا من أجله، لكي يعيدوا تشكيل

العالم.. فإن "الفاتحة" - المدخل - لابد أن يكون لها دور في هذا.. في تعليمنا كيف نعيد تشكيل العالم..

ولأنها - العماد، القلب - من الصلاة وقد قلنا إن الصلاة هي بمثابة دورة تدريبية، تدخلها طوال حياتك - لتتقن حياتك، لكي تجعل لحياتك معنى - فلا بد أن يكون للفاتحة دور في ذلك، في جعلك تتغير، وتعيد صياغة نفسك لتتأهل لتغير ذلك العالم.. الذي سيتغير للأسوأ باستمرار إن لم يقم شخص ما بأداء دوره، بأداء ما كلف به..

لا يمكن إلا أن يكون ذلك، لا يمكن لسورة تأخذ موقعاً كهذا إلا أن يكون لها وظيفة كهذه..

فما الذي فعلناه بها - الفاتحة؟..

بدلاً من أن تكون فاتحة لحياة جديدة، فاتحة لحياة من نوع آخر، أكثر خصباً وأكثر عطاءً وأكثر حيوية، فإننا جعلناها، ويا للأسف، علامة على "الموت"، صرنا نقولها عند موت أحدهم، عند التعزية، على أمل أن يذهب ثوابها لروحه المغادرة..

لا أجد شيئاً أكثر تناقضاً من هذا، لا أجد دليلاً على سوء فعلنا بالقرآن، وبكل ما يمت له بصلة، أبلغ من هذا (على كثرة ما فعلنا من أشياء مناقضة لما يريده القرآن منا)، أن تتحول "الفاتحة" التي افتتحت الحياة يوماً ما، التي كانت فاتحة عصر جديد يوم كنا نصنع العصور، أن تتحول لتصير علامة مقترنة بالموت.

أن تتحول الفاتحة من شاهد على الحياة، إلى مجرد أحرف مكتوبة على شواهد القبور..

لا ريب بعدها، ولا استغراب، من أننا تخلفنا عن صنع الحياة، وهو أمر لن يكون له ثواب جيد "أخروياً"، مهما تمنينا غير ذلك..

بين الفاتحة للحياة، والفاتحة للموت، مسافة شاسعة، هي بعينها المسافة بين ما يجب أن نكون، وبين ما نحن عليه فعلاً..

* * *

الطريق طويل، وصعب، وكذلك الغوص في أعماق الفاتحة التي هي قلب التغيير، لذا لابد من البدء به.. بلا طول مقدمات..

باسم الله، نبدأ..



الفصل الأول

البسملة: أن تعمل باسمه..

تبدأ الفاتحة، بالبسملة، وهي آية كريمة، عوملت، كما غيرها، بالكثير من التنميق والقليل من التعمق، حتى صارت مجرد جملة "أخرى"، نستهل بها الكلام، ولا نتوقف ولو للحظة واحدة عندها.. ولا نرى، أحياناً، أي ربط بينها وبين ما يتلوها مما نقوله.. أو ما نسمعه.. أو نفعله..

* * *

ولأنها عوملت كذلك، فقد تحولت إلى شيء أشبه بالطلسم، الذي يستخدم من أجل البركة أو الحفظ أو الحماية أو الحرز، أو أي شيء يرتبط، بطريقة غامضة، وغير مفهومة، بقوله عز وجل، أو بأمره لنا أن نقول ذلك، هكذا، كما لو أن الألفاظ هنا تمتلك استقلالية خاصة، أو سرّاً خاصاً، بمعزل عن معناها، كما لو أن فاعليتها، مستقلة عن فهمنا وتفعيلنا نحن لهذا الفهم..

من جملة ما يقوي هذا الفهم الطلسمي لأحرف القرآن عموماً، وأحرف "بسم الله الرحمن الرحيم" تحديداً، تلك

القصة المعروفة، عن واحد من كبار الصحابة، الذي طلب منه أحدهم أن يشرح له معنى بسم الله الرحمن الرحيم، فاستغرق حرف الباء منه الوقت كله بين صلاة العشاء وصلاة الفجر..

وهذه القصة، التي لن تصح بكل الأحوال، توحي أن لحرف الباء معنى مستقلاً عن السياق الكامل، عن ترابطه بباقي الآية الكريمة، والأكثر طرافة من هذا، أن القصة لا تروي لنا - ولو سطراً واحداً - مما قيل بين العشاء والفجر عن حرف الباء، كما لو أنه سر خطير لا يجوز أن يعلمه أحد من عامة المسلمين، وإنما هو مما يتداوله كبار الصحابة أو الأئمة مع بعض خواصهم..

وهذا كله، مع أنه يساق لإثارة الإعجاب بعجائب حرف واحد من أحرف القرآن، إلا أنه - بغموضه - يتناقض حتماً مع أساس من أساسات القرآن الكريم: إنه بيان للناس.. وليس تقريراً سرياً يجري بين بعض خواصهم..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم إذن،

ليست أحرفاً طلسمية، وطلباً - لا عقلانياً - للبركة والحفظ، ليس مجرد استهلال قد يكون غير مترابط مع ما يليه.. بل "بسم الله الرحمن الرحيم"، ارتباطٌ مباشر بحقيقة من أهم الحقائق في حياة كل منا ..حقيقة تكليفنا في هذه الأرض.. تكليفنا بالخلافة؛ خلافته هو عز وجل..

البسملة هي عن توصيفك الوظيفي..

عندما تستخلف أحداً ما في مهمة ما فإنه، مهما امتلك من صلاحيات، سيكون مقيداً بك.. وصلاحياته ستظل مقيدة بما (علمته) عنك وعن مهمته، التي هي خلافتك في جوهرها..

خليفتك، سيظل مقيداً بأنه مجرد خليفة، لا يمكن له أن يتجاوز هذا التوصيف الوظيفي (ويمكن له، بسهولة، أن يتخلف عنه)، لكن منصب الخليفة هو حده الأعلى، حتى لو كلفته بالمهمة وتركته لعقود مؤتمناً عليها.. أو لم تَرَه بعدها أبداً، فإنه سيظل "خليفتك".. مجرد "نائب" - تركته ينوب عنك في مهمة ما، على ما في ذلك من تشريف..

* * *

باسم الله، إذن، هي في جوهرها، إعلان بأنك الخليفة، وأنك باسمه عز و جل تقوم بما تقوم به، إنك، نيابة عنه، وأصالةً عن دورك وما كلفت به، تقوم "باسمه" بما تقوم به.. - بالضبط كما يصدر قرار ما، مرة أخرى بلا تشبيه، من جهة تشريعية عليا، وتقوم جهة تنفيذية ما، أدنى طبعاً، بتنفيذه، باسم الجهة العليا..

هذه هي البسملة في حقيقتها.. ليس من سر للبركة - ليس من طلاسم في أحرف منفصلة، بل الأمر كله يتعلق بوظيفتك في الأرض، بتوصيفك الوظيفي، بكونك الخليفة، الذي تنوب عنه، بأمره، في أداء ما كلفك به سبحانه..

أنت تعمل، بالتعريف، وبمنتهى الوضوح: باسمه..

هذه هي البسملة - إعلان منك عن وظيفتك، عن مهمتك في هذه الأرض التي ستظل دوماً كما هي، في حدها الأعلى، السقف الأعلى الذي هو أقصى ما يمكنك أن تحوزه، وأن تتشرف بالوصول إليه..

ليست مجرد جملة استهلال، ليست قولاً رتيباً، ليست مجرد أحرف نقولها بذلك التسطيح المؤسف الذي أضعنا به أعمق المعاني.. بل هي جملة تعلن فيها مشروعك، تعلن فيها وظيفتك في الأرض. وتعلن في الوقت نفسه، هوية من وظفك..

وتقر، أنك تعمل باسمه..

باسم الله..

عالمان وسفينة واحدة

أول مرة نطقت فيها هاتان الكلمتان، كانتا كما يجب أن تنطقان دوماً.. أن تكونا بياناً، استهلالاً لمشروع يعيد بناء العالم..

مشروع حقيقي، وليس تنظيراً مجرداً بلا إسقاطات على أرض الواقع..

"باسم الله" كانت هناك للمرة الأولى في التاريخ.. بين عالم قديم كان يوشك على الانهيار والزوال، وعالم آخر، كان يوشك أن يولد - وكانت "باسم الله" جزءاً أساسياً من بناء هذا العالم، كانت موجودة هناك في مخاض الولادة..

فكانت تلك هي المرة الأولى التي نطقت..

كما أنها كانت المرة الأولى، التي يعاد فيها بناء العالم.. من جديد..

* * *

الزمان: فجر التاريخ.

المكان: المعمورة بأسرها.

المناسبة: إنقاذ العالم.

* * *

حدث ذلك فعلاً، عندما واجهت البشرية أكبر أزمة حتى ذلك التاريخ، وكانت مسببات الأزمة يلتقي بعضها مع بعض، وتتفاعل دون ضجيج واضح، لكن عندما فار التنور، والتقى الماء على أمر قد قدر، اتضح أن الخلل كان قد بدأ من الأساسات، من العمق، ولذلك كان البناء كله هشاً ورخواً، وسرعان ما أطاح به الطوفان..

كان ثمة طوفانان، وليس واحداً؛ طوفان غير مرئي، استشعره نوح، وأدركه قبل حدوثه، لأنه كان نابعاً من اللا توازن الذي غطى المعمورة، من عدم وجود "سد" واضح في النفوس البشرية يمنع هذا الطوفان، الذي صار قدومه حتماً مقضياً..

وكان ثمة الطوفان، التحصيل الحاصل. المرادف المادي لذلك الطوفان الأول..

وكان ثمة، بمواجهة الطوفانين: سفينة واحدة، هي أكثر من مجرد سفينة؛ بل هي رؤية مغايرة، مشروع إنقاذ،

مشروع بناء لعالم جديد.. مشروع ولادة ومخاض.. لعالم يوشك أن يولد من أنقاض عالم قديم متهاوٍ..

عالمان إذن، وسفينة واحدة..

* * *

وفي تلك اللحظة الحاسمة الفاصلة بين موت العالم القديم، وولادة العالم الجديد.. قيلت، لأول مرة، أول بسملة في التاريخ..

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾ [هود: ١١/٤١]..

اركبوا فيها !، قيل لهم، كانت تلك هي السفينة، الفلك، الذي صنع بالرؤية الإلهية ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٧].. المركب الذي صنع حسب مواصفات تلك الرؤية، ولكن بأيدي خليفة الله على الأرض، ممثلاً في نوح الذي كان يعمل بالنيابة، وفق المواصفات الإلهية، كما سيعمل أي مستخلف، بأمر من أخلفه..

اركبوا فيها، قال لهم، باسم الله مجراها ومرساها، وكان قبلها بسم الله بناؤها أيضاً - وكان ذلك آنذاك تحدياً لتيار الواقع كله - كان بناؤها، باسم الله، عملاً أقرب إلى الجنون حسب المقاييس السائدة، لكن كل عمل ينطلق من رؤية مختلفة، من مشروع مختلف ومغاير، سيبدو كذلك..

﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١١/٤١] قال لهم - وكانت البسملة يومها هي المركب الحقيقي، ليس الخشب

والمسامير والألواح، كانت البسملة، باعتبارها بيان التوصيف الوظيفي، هي استهلال المشروع الذي أنقذ البشرية من نفسها..

كانت البسملة هي ذلك المركب الذي رحل عن المرافئ القديمة الغارقة، باتجاه المرفأ الحقيقي الآمن..

كانت البسملة، نورساً جاء في خضم المخاض، وحط على ألواح السفينة، بشارة بقرب الوصول إلى البر الآمن..

حكاية المجرى وحكاية المرسى

لم تكن البسملة يومها وحيدة، بل كان معها ما يوضحها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ١١/٤١]..

فالمجرى والمرسى هنا، تعني أن مشروع الاستخلاف ليس مشروعاً اعتباطياً أو شعاراتياً، كما يمكن أن يكون أي مشروع. المجرى والمرسى هنا، توضحان أن "اسم الله" لم يزج به في الموضوع دونما عمق..

فالمجرى هنا؛ مجرى السفينة، أو مجرى المشروع كله، قائم حتماً وطبعاً على السنن؛ أي على القوانين الإلهية التي وضعها عز وجل في الكون، وجعل الكون قائماً عليها مستمراً من خلالها..

أي مشروع يتجاهل حقيقة "المجرى"؛ أي جريان الكون كله على هذه السنن، سيكون مشروعاً خارجاً عن "السنة".. وعن أي نتيجة إيجابية يحققها.. أي مشروع، يبدأ باسم

الله، دون أن يضع في الاعتبار قيد السنن الإلهية، لن يأخذ من "اسم الله" إلا الاسم دون المسمى..

لن يكون سوى شعار..

وما أكثر الشعارات، وما أقل المشاريع الحقيقية.. في عالم هو في أمس الحاجة إلى "المشروع"..

عندما يصير المجرى بلا مرسى

من السهل جداً الادعاء بالتمسك بالقوانين الإلهية، والسنن الكونية، وتوسيع معنى القوانين والسنن، لتشمل كل نظرية حديثة، وكل رأي لم يثبت مصداقيته، وكل صرعة حديثة لن يذكرها أحد بعد عشر سنوات من لمعانها..

من السهل التخبط في هذا.. ومن السهل الانخداع ببريق وازدهار المشروع الغربي، القائم على معرفة القوانين الكونية واستخدامها.. لكن الأمر، مع مشروع نوح الذي استُهِلَّ " باسم الله" ليس هكذا بالضبط. فمجراها متبوع فوراً بمرساها.. وهذا يعني أن المشروع له قصد معين، له هدف معين، له منتهى معين، هو مرفأ وبر الأمان بالنسبة إلى المشروع كله، وهو، كما "المجرى"، "مرسى" مرتبط باسم الله ومقيد به؛ أي إن "هدف المشروع" - وقيمه الداخلية، ومقاصده هي مقاصد مطلقة وليست نسبية، ثابتة وليست متغيرة..

وهذا هو الفرق بين مشروع يعتمد على "جريان" السنن والقوانين فحسب، كما هو المشروع الغربي القائم والمزدهر حالياً؛ ومشروع آخر، ليس موجودا حتى اللحظة،

لكنه يجب أن يقوم، وأن يكون، مشروعاً مقيداً بالمجرى والمرسى، بالسنن، وبالمقصد الأصلي..

مشروع "المجرى دون المرسى"، مشروع يعتمد على جريان السنن دون بوصلة "قيم" تحدد هدفه، فيسقط بسهولة أحياناً فريسة أصحاب المصالح والأرباح، الذين يوظفون "السنن" عندهم في الشركات العابرة للقارات، من أجل زيادة الأرباح و مراكمة الأرصدة، وما دام لا بوصلة - ولا قيم مطلقة تحدد الصواب والخطأ، ولا "مرسى" أو بر أمان محدداً، فإن السفينة ستظل تجري وتجري، دون أن تحظى بنورس يبشرها بقرب الخلاص..

بالضبط ستظل تجري "على غير هدى"..

* * *

كانت هذه أول بسملة في التاريخ، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ١١/٤١]، وكان الزمان فجر التاريخ، والمكان المعمورة كلها، والمناسبة: إنقاذ البشرية من نفسها..

هل تغير شيء عبر التاريخ؟.. ليس كثيراً..

لا يزال الطوفان كامناً، ولا تزال المرافئ القديمة غير آمنة، ولا تزال تلك السفينة كامنة، تحتاج من يبنيها..

النورس القريب من البر ينتظرنا.. ينتظر ألواح السفينة كي يحط عليها، معلناً بشارة الخلاص..

من الإنسان الخليفة إلى العالم بأسره

المرة الثانية التي قيلت فيها "باسم الله"، كانت هي المرة الأولى التي نطقت البسملة بشكل كامل؛ أي كما نقولها الآن، كما ابتدأت بها الفاتحة، ومن ثم كل سور القرآن.. هذه المرة كانت على لسان سليمان، الذي تصدى ليكون "الخليفة في الأرض" في وقته، لا بمعنى الوصول إلى كرسي الملك، على أهمية ذلك، ولكن بالاستخلاف بمعناه الواسع الشامل، من إعمار الأرض إلى إحقاق الحق مروراً ببناء المجتمع المتوازن..

وهكذا، فبينما بنى نوح مجتمعاً جديداً خارجاً من الطوفان، فإن سليمان الذي استخلف في الأرض، مع أبيه داوود من قبل، كان يروم نقل تجربة الاستخلاف إلى المجتمعات الأخرى التي تسير في طريق آخر.. كان يروم "إصلاح العالم"..

لهذا فعندما جاءه الخبر، عن مجتمع بعرش عظيم، لكن أصحاب هذا العرش يسجدون للشمس من دون الله، قرر سليمان أن أساسات هذا العرش، هذا المجتمع، رخوة بما فيه الكفاية لكي تسقط، وإن بدا الازدهار والنمو على سطح الأمور وزخرفها الظاهر..

لذلك فقد بعث بذلك الكتاب.. يقول فيه ما يجب أن يقال..

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/٢٩-٣٠].

عند البسملة الأولى، وقت الطوفان، لم يكن هناك خيار آخر أمام من ركب السفينة، كان المجتمع قد انهار، والماء قد اكتسح كل شيء، حتى قمم الجبال، بدا بالتدريج أنها لن تنجو من أمر الله..

لذلك، وبما أن الخراب قد حل، فقد كانت السفينة، في أسوأ أحوالها، قشة، لا يمكن لعاقل إلا أن يتعلق بها، ما دام لا خيار آخر هناك.. وقد ثبت لاحقاً أنها لم تكن قشة بل مركب نجاة حقيقي، لإنقاذ العالم بأسره، لكن ذلك لم يكن من الممكن معرفته لحظة الركوب.. كان وجود أمل ولو خافتاً أفضل بالتأكيد من الاستسلام للطوفان..

أما مع البسملة الثانية، فقد كان المجتمع -هذه المرة- في أوج ازدهاره ونموه، لم يكن واضحاً للعيان أن ثمة مشكلة في أساساته، على العكس، كانت كل أرقام النمو تجعل من هذا المجتمع، ومن عرشه العظيم، مثالاً ونمطاً يحتذى..

لكن رؤية الاستخلاف، التي تتجاوز الظاهر رغم بهرجته، كانت تعلم أن المشكلة قائمة بجذورها، وقادمة مهما طال الزمن..

لذلك كانت رسالة الإصلاح تلك..

وإنها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾..

لا تسجدوا للسنن..

في البسملة الثانية، كان هناك المجرى والمرسى مجدداً، وإن بشكل مختلف..

فسفينة نوح سخرت المجرى للوصول إلى المرسى؛ أي بعبارة أخرى، سخرت السنن والقوانين، للوصول إلى الهدف..

أما حضارة سبأ، التي سجدت للشمس، فقد تحول استخدامها للسنن والقوانين إلى عبادة لها، والسجود للشمس هو مظهر متقدم من هذه المظاهر، بكل ما تمثله الشمس من قوانين فيزيائية تتدخل في حياتنا وفي زراعتنا وفي مظاهر النمو والازدهار عموماً..

حضارة الاستخلاف، الممثلة في الإنسان الذي تصدى للتكليف؛ وهو سليمان هنا، هي حضارة تستخدم السنن وتسخرها للوصول إلى هدف محدد وليس العكس، ليس أن تستخدم هي عند السنن.. دون أن يكون هناك هدف واضح؛ فالرياح إذن، على سبيل المثال، كانت تجري بأمر سليمان، وليس العكس؛ أي ليس أن تأخذنا السنن إلى حيث تريد، بل أن نخبرها ونختبرها ونسيرها إلى حيث نريد..

وهذا هو الفرق الأساسي، بين حضارة الاستخلاف، سواء كانت إبراهيمية، أم داوودية، أم حضارة يبنيها أي أحد منا، أو من أولادنا إذا أحسنا إنشاءهم، وبين أي حضارة أخرى على غير قيم الاستخلاف، إن الأخيرة تتحول بالتدريج إلى السجود إلى السنن.. بعد أن تفقد بوصلة المسار والهدف..

علينا أن نكرر أن مشروع الاستخلاف كله.. قد بدأ بتلك العبارة التي تحتويه وتختصر أهم شيء فيه..

العبارة التي تشير إلى أننا هنا، نقوم بما يجب أن نقوم به، بأمر من كلفنا بذلك، إننا فقط "مأمورون".. وإن كل هذا، نحن فقط "خلفاء" فيه..

تلك العبارة التي تفتتح بها الفاتحة..

"بسم الله".. الرحمن الرحيم.

القضايا الصغيرة كجزء من سياق أوسع..

ولكن إذا كانت "البسملة" كبيرة كما تقول، وتحتوي في داخلها على كل هذه المعاني الكبيرة، فكيف تفسر و (تقصّد) ذكر "اسم الله" على عمل روتيني وعادي مثل تناول الطعام؟..

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٢١]..

إنه مجرد طعام.. ولكن ثمة حملة من الشياطين وأوليائهم للجدل في الأمر (.. لا تكن سخيفاً، إنه مجرد طعام، والبسملة مجرد ألفاظ تقال، هل يعقل أن الله سيحاسبك عليها؟!..)..

وهذا هو الأمر بعينه.. إنه ليس مجرد طعام.. كما أن البسملة ليست مجرد ألفاظ.. فالطعام، الذي هو حاجة بيولوجية يشترك فيها الإنسان مع بقية المخلوقات الأدنى منه، واستمراره في الحياة بمعناها البيولوجي مرتبط باستمرار أدائه لهذه المتطلبات بالضبط كما هو الأمر مع المخلوقات الأخرى..

لكن مع الإنسان، المخلوق الأعلى، لا يجب أن ينتهي الأمر هنا.. فالعيش ليس هو الهدف بحد ذاته، فهذا لا يفرز إلا نوعاً متدنياً لا يعدو أن يكون "حياة دنيا"، لكن ثمة حياة بمتطلبات أكثر رقياً، مرتبطة بمعانٍ أكثر سمواً، يمكن أن "تحيا" وأن "تمارس"، فإذا بها تخرج حتى التفاصيل البيولوجية عن مسارها الضيق إلى آفاق أعلى..

وهكذا لا يكون "الأكل" محض أكل لسد الرمق أو لإرضاء غرائز الجوع والشبع أو التلذذ بالطعام الطيب.. يصير "الأكل" قضية أخرى مع البسملة، فها أنت تتذكر، مع هذا الطعام، وسواء كان مصدره نباتياً أم حيوانياً - أو أي مصدر آخر بينهما - فإنك ستتذكر مع البسملة، أنك "السيد" في هذا الكوكب، وأن كل ما سواك من المخلوقات، هي دونك في سلم الخليقة، وأنها مسخرة لك وحدك؛ لتواصل حياتك وتستمر في معيشتك، ولكن وجودك على هذه المرتبة التي تخولك السيطرة على ما هو أدنى منك من المخلوقات ليس وجوداً مطلقاً بلا قيد أو شرط، إنك هناك لتؤدي "واجباً" بعينه، ولديك، بالمقابل، حقوق تمكنك من الاستمرار، و "تسوّدك" على تلك المخلوقات، عملية مبررة ومنطقية ضمن سياق التوازن بين الحقوق والواجبات..

هذا كله، يبث الضوء والنور في تفاصيلنا المعتمة.. يبث الإنسانية فيما يبدو أحياناً أنه بهيمي وحيواني...

باسم الله، يتحقق ذلك.

ضمانات لا بد منها ضد التمادي: الاستخلاف المشروط

لكن لا بد من الإقرار هنا، أن ثمة من يسيء استخدام "اسم الله" من جهة أخرى..

عندما تقول ما تقول وتفعل ما تفعل باسم الله، وبتفويض منه، وتخويل منه، فإن هناك، فرصة كبيرة، وهامشاً واسعاً، للتمادي، لاستغلال السلطة..

كما قد يسيء أي موظف كبير استخدام منصبه، يمكنك أن تسيء إلى منصبك الكبير: الخليفة.. يمكنك أن تتمادى.. وأن تظلم.. أن تفسد حتى، وتدعي أنك تصلح، وأن تفعل كذا وكذا.. بحجة أنك إنما تفعل ما تفعل باسم الله..

حدث ذلك عبر التاريخ.. ويمكن أن يحدث.. أن يساء استخدام اسم الله، كما يساء استخدام أسماء أخرى، فترتكب الفظاعات باسم أرقى المبادئ وأكثرها تحدثاً عن العدالة والحرية..

لكن أن يساء استخدام المبادئ "الإنسانية" شيء، وأن يساء استخدام "اسم الله" - جل وعلا - شيء آخر تماماً.. وهو أمر تقيده، وتحيده، وتمنعه البسملة نفسها..

كيف؟..

لأن "البسملة" - منذ أن أرسل سليمان كتابه "الكريم" إلى ملكة سبأ - استقرت بأن تكون مقيدة" بالرحمن الرحيم"..

ليس أي اسم هذا الذي نعمل باسمه.. من أسمائه سبحانه وتعالى..

من بين كل أسمائه - على كثرتها - فإنه عز وجل شاء أن يحدد لنا اسمين فحسب، لكي يكون عملنا ضمن "النطاق" الذي يحدده هذان الاسمان..

والاسمان، يحددان نطاقاً منحازاً تماماً للرحمة.. أي عمل تقوم به، وتقول إنه باسم الله، ولا يمكن أن يصنف ضمن رحمة الله، فهو ليس باسم الله حقاً.

بعبارة أخرى: التخويل الذي منحه الله لك، ليس تخويلاً مطلقاً بالتصرف كيفما كان..

إنه مقيد - حتماً وبلا تراجع - بأن يكون عملك جزءاً من رحمة "الرحمن الرحيم"..

ولذلك فالبسملة نفسها، تكذب، كل من يتلفظ بها ليسفك دماً حراماً أو يظلم.. أو يفسد في الأرض..

البسملة - بالتعريف، وبارتباطها الأساسي بالرحمن الرحيم - تعريه وتكشفه.. تبرأ من كل "فعل" يتخفى تحت اللفظ، دون المعنى..

من أجل ذلك؛ كي لا يصير "اسم الله" شعاراً تمرر عبره كل الجرائم، فقد ارتبط اسم الله بالرحمن الرحيم حصرياً، وكأن هذا سيجعل من يتلفظ بالبسملة ويفعل ما يخالفها، يقول عن نفسه صراحةً أنه كذاب، كما لو أنه قد كتب ذلك على جبينه دون أن يعلم..

وكم من أفعال، كم من قرارات، كم من بيانات وأحكام

وفظاعات فعلت استهلها مرتكبوها باسميه الرحمن الرحيم.. جاهلين، أنهم بهذه العبارة إنما ينسفون ادعاءهم.. ويبرؤون اسم الله وخلافته من أفعالهم..

من أجل ذلك، كان "اسما الله" اللذان اختارهما الحق في البسملة: هما الرحمن الرحيم.. لنتذكر أن تخويلنا مقيد، وأن استخلافنا مشروط..

هذا هو..

أهمية أن تؤمن بنفسك

ولا يجب هنا، ونحن أمام كل هذا العمق وكل تلك الآفاق المحتواة في البسملة، أن نغفل عن واحد من أهم هذه الأعماق، وأكثرها فاعلية من ناحية تعلقها بوظيفة الصلاة في حياة الإنسان..

"البسملة"، باعتبار أنها إعلان عن التخويل الذي استلمته. وباعتبار أنك تقوم بما تقوم به باسم الله تعالى، وليس باسمك الشخصي أو اسم أي شخص آخر، فإنها ستقويك، ستجعلك أكثر قدرة وأكثر إيماناً بقدراتك بالذات، ستجعل من كل ما يحول بينك وبين أهدافك أقل شأناً في ذهنك، كما يفعل التكبير في الافتتاح، أو "أول المسلمين" في دعاء الاستفتاح - إنك تكبر، يصير إيمانك بنفسك جزءاً من إيمانك بالله رب العالمين.. لن تنتفخ ذاتك بالأوهام، بل ستنمو كما ينمو نبات في بيئة صحية، ليكبر بالتدريج، ويثمر بالتدريج..

هذه البسملة، التي هي بيان الاستخلاف المرتبط باسم

من استخلافك، ستجعلك تؤمن أنه سيعينك - بطريقة ما - على مهمتك.. بغض النظر عن سلبية تصورك لنفسك في ذهنك (عاصٍ.. مذنب.. خاطئ.. بلا أمل.. إلخ) مهما كنت، فإن توصيفك الوظيفي؛ أي مؤهلك الأساسي - كونك إنساناً - سيجعلك مستخلفاً.. وسيعينك ذلك، على البدء بمهمة التغيير..

المهمة التي هي جوهر الصلاة التي إذا أديت كما يجب، فإنها ستكون أفضل الأعمال..



الفصل الثاني

استراتيجية "الحمد"...

تعودنا "الحمد" تلفظاً حتى كدنا أن نفقد المعنى، كما مع كل العادات، خمدت الشعلة المضيئة في المعنى، وصار بمثابة أنبوبة نيون باهتة على وشك النفاد، لن نفكر إلا في استبدال أنبوبة أخرى بها عندما تنفد تماماً، غير مدركين أنها يمكن أن تكون ضوءاً ساطعاً كاشفاً، يمكن أن تكون مصدراً مولداً للنور.. للطاقة، تغذي الروح والأعصاب وسائر أعضاء الجسد..

والحمد - كما كل "مصادر الطاقة" - يمكن أن يكون بوجهين، أو بالأحرى يمكن أن يوظف باستخدامين.. كما هو الحال مع الكهرباء، ومع الماء، ومع كل قوى الطبيعة، يمكن أن تكون نافعة جداً، مثمرة جداً. ويمكن لها أن تكون مدمرة جداً.. مفجعة جداً..

كذلك "الحمد" - يمكنه أن يوظف في سياق له إشارة سلبية جداً، وهو السياق المخالف للقرآن، ويمكننا أن نستخدمه كما أمرنا عز وجل. فإذا به سياق إيجابي جداً، بل ومتخم بالإيجابية..

هل هو "الحمد" نفسه..؟

لا.. فقط تشابه في الأسماء.. لا أكثر ولا أقل..

فالعبرة هي في طريقة الاستخدام: كهرباء أقبية التعذيب والمعتقلات، لا تشبه "الكهرباء" التي تنير قاعات الدرس والمصانع إلا بالاسم..

وجهان للحمد..

"الحمد" يمكنه أن يكون دواءً مسكناً للألم.. مثل عقار تخدير ناجح جداً.. ولكن، مع هذا (النجاح) فإن هذا هو، على الأغلب الجانب السلبي من الاستخدام.. وليس العكس..

لم ؟..

لأن الدواء المسكن، أو المخدر، رغم نجاحه في تخدير شعورك بألمك، وتخفيفه.. إلا أنه في الوقت نفسه، يلهيك عن سببه، يخفف من حدة حاجتك إلى مواجهة المرض حقاً لا لتخفيف أعراضه فحسب..

ولأنك لن تعود بحاجة ماسة إلى المواجهة، الآن وقد خف الألم، فإن المرض سيتقدم أكثر وأكثر، ما دمت لم تفعل شيئاً حياله.. وسيفاجئك في منعطف ما، لن تعود مسكناتك مجدية فيها.. لأنك كنت تزيد من الجرعة أكثر فأكثر، للحصول على القدر نفسه من التسكين..

* * *

أما "الحمد" الحقيقي، فهو "حبة" أخرى قد تشبه الحبة

الأولى في اللون والشكل والطعم، لكنه محض تشابه في الأسماء كما أسلفنا. أما التركيب الداخلي للحبة.. مكوناتها الكيميائية ونسبها - فهي مختلفة تماماً.. تماماً..

الحمد الحقيقي لا يبالي بالألم إلا بقدر تعلقه بسبب الألم، إنه يهاجم مصدر الألم؛ المرض الحقيقي وليس العرض الذي هو مجرد ناتج للمرض.. الحمد الحقيقي يهدف إلى العلاج حقاً حتى لو كان هناك ألم ناتج عن هذا العلاج، فلا بأس، لا شيء يأتي بسهولة. إنه يأخذ شكل تلك الحبة المقاومة بضراوة أحياناً، ويأخذ شكل العلاج بالإشعاع، أو بالجرعات الكيميائية أحياناً أخرى..

والحمد الحقيقي، قد يكون أحياناً جراحياً، استئصالاً لورم لا فائدة من معالجته..

هذا هو الحمد حقاً، ولكن أبداً ليس "التخدير"، أبداً ليس تخفيف الألم من أجل تناسي مصدره..

الحمد: الإصرار على الإيجابية

ورغم كل هذا التدرج في الوصف، من "الحبة" إلى "التداخل الجراحي"، فإني أتصور أن الوصف الأمثل للحمد الحقيقي، هو أنه بمثابة عدسة "لاصقة" تزرع على أعيننا ونرى الأشياء والعالم من خلالها..

إنها بمثابة "رؤية" للعالم من خلال منظور معين. عندما نفهم معنى الحمد فعلاً، فإنه سيصير فعلاً جزءاً من طريقتنا لرؤية العالم، ومن ثم لعلاقتنا مع هذا العالم ولموقعنا فيه..

وعندما أقول إن الحمد هو جزءٌ من تلك الرؤية فإني أقصد ذلك حرفياً، بمعنى أن الفاتحة بمجملها، تكون تلك الرؤية..

و"الحمد" حتماً هو جزء أساسي من ذلك كله..

* * *

وعندما يكون "الحمد" جزءاً من تلك الرؤية، وعندما يكون "الحمد" موظفاً في سياقه الذي يجب أن يكون، فإن الرؤية الناتجة، ستكون رؤية إيجابية جداً..

ذلك أن "الحمد" هو ذلك الانحياز الدائم - المسبق - للإيجابية في هذا العالم..

الحمد، الذي هو جزء من الفاتحة التي تتكرر - في الحد الأدنى - سبع عشرة مرة في اليوم، هو اتخاذ ذلك الموقف، الذي يصر على رؤية ما هو إيجابي في العالم..

إنه اتخاذ الإيجابية كزاوية ثابتة للرؤية.. والبقاء هناك.. عدم مغادرتها أبداً..

ما دمت تصلي.. ما دمت تقول "الفاتحة" سبع عشرة مرة في اليوم والليلة.. فإن زاوية الرؤية هذه ستظل ثابتة.. ملتصقة بك التصاق أهدابك بعينيك.. بل أكثر..

التصاق بؤبؤيك بعينيك..

إيجابية أن ترى السلبيات

والإيجابية هنا، الناتجة عن موقف "الحمد" هذا، هي أبعد ما تكون عن التفاؤل السطحي الساذج الذي هو في

حقيقته أقصى سلبية يمكن تخيلها، مهما زركشت بشعارات الإيجابية والحث عليها..

ليس من الإيجابية في شيء، أن ترسم صورة زاهية وبراقة لعالم بائس وتعيس؛ لأن هذه الصورة البراقة المزيفة ستعطل في داخلك إرادة تغيير العالم وإعادة بنائه بصورة أكثر عدلاً واتساقاً.. ليس من الإيجابية في شيء، أن تضع نظارات وردية على عينيك، لتغطي على صورة الدم الذي يلطخ العالم، والجهل الذي يكتسح العالم، والجوع الذي يكتسح العالم.. ليس من الإيجابية في شيء، أن تركز بعينيك على العالم المترَف، والناس المتخمة بطراً وثراءً بينما هناك عالم آخر، مدقع الفقر، يعيش فيه ناس آخرون، لا يمتلكون ما يسدون به جوع أطفالهم..

ليس من الإيجابية في شيء، أن تعتقد أن "على الأرض السلام، وفي الناس المسرة" وتشيح بوجهك عن كل ما يعارض ذلك.. من حروب ودماء وحزن وظلم تعيش فيه الإنسانية..

ليس من الإيجابية في شيء، أن تؤمن بأمل كاذب طويل؛ لأن هذا الأمل، سيزيف المعطيات التي سيكون العمل على أساسها، ومن ثم فإنه إما سيعطل إرادة العمل، أو يضعه في سياق غير مؤثر، فما دام العالم جيداً هكذا، فلماذا تغيره؟.. احرص فقط على استمراره كما هو..

* * *

الإيجابية الحقيقية، التي يمكن أن توظف في سياق إيجابي، ليست تلك التي تجعلك تتعايش مع الواقع السيئ عبر الاقتناع أنه ليس سيئاً جداً، بل أنه مليء بالإيجابيات ليسهل ذلك تأقلمك معه، هذه ليست إيجابية، هذه فقط "آلية إنكار"، حبة مسكن للألم، حقنة مخدرة تجعل الألم أقل..

الإيجابية الحقيقية هي التي تنطلق من حقيقة أن الواقع سيئ جداً، وأنه مليء بالظلم والقهر والتمييز والجهل وكل ما هو سلبي وسيئ.. لكنها تنطلق من هذه الحقيقة لا لكي تتجه للنواح والندب واليأس، بل لكي تؤكد أن ذلك كله مع سلبيته ليس قدراً مقدوراً، ليس حتماً مقضياً، بل هو شيء يمكن تغييره، شيء يمكن العمل عليه وعلى إزالته واستئصاله من جذوره إذا كان الخطأ من أساسه، وعلى تشذيبه وترميمه إذا كان الخطأ ناتجاً عارضاً..

الإيجابية هي أن تعترف أن الواقع - أحياناً، على الأقل - سيئ جداً، وأن العالم - أحياناً أيضاً - هو عالم "لا يطاق"..

لكن الأمر هنا، هو أن تؤمن، أن ذلك كله ليس نهاية الأمر.. ليس مرساه..

بل أن تؤمن أنك تطيق تغيير هذا العالم.. مهما كان ذلك صعباً.. مهما بدا ذلك شاقاً..

يجب أن تؤمن أنه ليس مستحيلاً..

ولو بعد حين..

"الحمد" من أجل التغيير

"الحمد" هنا إذن، ضمن هذا السياق، هو أبعد ما يكون عن كونه "تكتيكاً" مرحلياً يجعلك تنسجم مع واقعك، باعتبار أنه قضاء الله وقدره.. بل هو "استراتيجية" شاملة باتجاه التغيير وإعادة بناء العالم..

ليس "الحمد" ثناءً على واقع سيئ، بل هو الثناء على الله عز وجل لأنه منحك الوعي الذي يجعلك تفهم كيف يسير العالم، و "الإرادة" من أجل جعله مكاناً أفضل، إنه الثناء على الله لأنه خلق لنا عالماً واستخلفنا فيه؛ عالماً يمكن تغييره وإعادة بنائه وجعله كما أراد الحق عز وجل..

الحمد، لمستحق الحمد، عز وجل، سيكون بهذا حمداً مطلقاً، ودائماً وغير مقيد، لسبب بسيط وأساسي، وهو أن كل ما خلقه الله من إمكانيات للتغيير، ومن معطيات له، ومن "عالم" هو بطبيعته قابل للتغير، كل ذلك سيكون دائماً.. ما دامت هناك حياة، وما دام هناك هذا النوع الإنساني، المكلف بالتغيير..

* * *

وهكذا، فإن مواضع الحمد في القرآن الكريم، تتجه دوماً هذا الاتجاه؛ اتجاه "العلاج الحقيقي"، لا اتجاه "المسكن والمخدر" الذي استخدم بكثرة للأسف لأسباب ليس هنا مجال الحديث عنها......

جوهر الحمد

واحدة من الآيات القرآنية الكريمة، تكاد تكون آية مفتاحية لكل آيات الحمد، ولكل استخداماتها، ومن ثم هي مفتاح لأبواب كثيرة، من أبواب حياتنا ومغلقاتها..

ففي الحياة، حياة كل منا، تحدث أحياناً أشياء كثيرة، لا أستطيع أن أقول إنها "لطيفة"، بل إنها أحياناً أشياء لا يمكن وصفها بأقل من كونها مفجعة، كريهة..

ثمة أحياناً، ظلم، وظلم فادح، ثمة قهر.. ثمة فقر.. ثمة جشع.. ثمة تمييز..

ثمة "الحزن".. الكثير منه..

ولكن ثمة أيضاً: الحمد..

* * *

قد يطرق الباب يوماً ما، زوار فجر جالبين معهم الظلمة، قد لا يطرقونه حتى، بل يفجرونه ليدخلوا - والوقت فجر أو قبله بقليل - ثم يأخذون أحدهم، قد يكون أباك، وتكون هذه آخر مرة تشاهده فيها، وقد يكون أخاك.. وقد تكون أنت.. ولن يكون لك فرصة لتشاهد أولادك يكبرون..

ومع ذلك... هناك: الحمدُ لله..

* * *

قد تجد نفسك يوماً لاجئاً في البلد الغريب بلا سقف، بلا اسم، بلا عنوان، وكنت قبلها عزيز قومك، وابن عزيز

قومك.. ثم شردتك الدنيا فجأة بلا سابق إنذار، وأطاحت بأحلامك ويجنى عمرك وخططك وكل ما بنيته إلى تلك اللحظة.. ووجدت نفسك بعيداً في المنافي والأصقاع..

ومع ذلك، تقف، لتقول، سبع عشرة مرة في اليوم - في الحد الأدنى المقبول -: الحمد لله..

* * *

وقد تجد نفسك على وشك الغرق في التيار، والماء وصل إلى ذقنك، وأنت تحاول أن ترفع رأسك ليبقى أعلى من مستوى المياه،و وفوق ظهرك تحمل أطفالك، تشهق بصعوبة لتدخل الأوكسجين في رئتيك.. والماء يرتفع ويكاد يأخذك..

قد تجد نفسك مطحوناً في دوامة الحياة.. أعصابك تكاد تهترئ مثل جثة رجل غريق ملأتها عضات الأسماك.. تحاول أن تتوازن فإذا بك مثل من يمشي على حبل رفيع في الهواء، وتحته أسود تتضور جوعاً..

قد تكون الحياة تلعب لعبتها معك، بأقسى وأشد شروطها وقواعدها، وأنت لا تكاد تجد الوقت - ولو لحظة واحدة - لكي تخلو إلى نفسك، لكي تسترخي من شدة ضراوة اللعبة..

رغم ذلك، فإنك ستقف لتصلي، ولو انتبهت في صلاتك، لانتبهت، أنك، مع ذلك، ستحمد الله..

* * *

وقد تجد نفسك راجعاً من المشرحة، حيث استلمت جثة واحد من أحبابك.. قتلوه ظلماً، أو حتى بلا سبب.. وكانت المشرحة مليئة بجثث مشلوحة، قتلت أيضاً ظلماً، قتلت أيضاً بلا سبب، لكل منهم أحبابه وأطفاله الذين سيكبرون بلا أب، وسترجع دامع العينين وقلبك يجهش بالبكاء، ورائحة الدم تملأ أنفك حتى النخاع..

رغم ذلك، رغم أنه لا يصدق، ولا يطاق..

فإنك ستقف، وربما قلبك لم ينه بكاءه بعد، تقف، لتصلي، وتقول، ضمن أشياء أخرى: الحمد لله..

* * *

لا.. إنه لا يصدق.. ويبدو أحيانا أنه لا يطاق..

ولكن من أجل أنه لا يصدق.. ومن أجل أنه يبدو أنه لا يطاق، فإن هذا هو جوهر الحمد.. هذا بالذات هو جوهر "الحمد لله"..

الجوهر الذي توضحه تلك الآيات ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٥/٣٢-٣٤]..

فالسياق هنا يتحدث عن إرث "للكتاب" ساهم في تشكيل أمة استخلاف، لا ريب أنها مرت بصعوبات بالغة

في أثناء تشكلها، لا ريب أنّ كانتّ أحزان كثيرة ودموع أكثر، ومصاعب ومشاق وألم وفراق، كما سيحدث في أي مخاض تاريخي..

لكن كل تلك المصاعب، وإن خلفت الألم والحزن، المهم ألاّ تخلف الحَزَن..

آلية مضادة للحَزَن

و "الحَزَن" غير الحزن، إنه الأرض الجامدة الصلدة التي لا تفلح ولا تنبت.. إنه الاستعارة القرآنية البليغة عن ذلك اليأس الذي يجعل مصاعب الحياة تحيدك عن دورك، تحيدك عن الحياة نفسها، عن تفاعلك ونموك وإثمارك.. تحيدك عن أن تكون "نفسك"..

وهذا هو جوهر وفاعلية "الحمد" - ووظيفته الأساسية: إذهاب الحَزَن، إذهاب اليأس والجدب وعدم الإثمار، الحمد وظيفته أن يأخذك من ذلك الركن البعيد، الذي ستجرفك إليه أحزانك ومصاعبك..

ويرجعك إلى حيث يجب أن تكون.. إلى موقع "الفاعلية"..

الحمد لله، والثناء عليه، لا يتنافى مع أن عينيك قد تدمعان، وقلبك قد يجهش بالبكاء.. فالحياة صعبة أحياناً (.. في الحقيقة إنها صعبة جداً).. لكن "الحمد لله" تقوي عمودك الفقري وتجعله يصمد أمام العاصفة.. "الحمد لله" تذكرك بأنه هناك، وأن الإطار الكلي للمشهد النهائي، أهم

وأهم من بعض التفاصيل الصغيرة التي قد نقف عندها طويلاً..

الحمد لله، تذكرك بألا تقف عند هذه التفاصيل طويلاً، وأن ترحل دوماً إلى حيث يمكنك أن تؤثر في المشهد النهائي، له الثناء والحمد، خلق لك الإرادة والوعي، وجعل من العالم كله ساحة تعج بالمؤثرات والسنن بحيث يمكن لك أن تغير فيه.. وهذا الثناء والحمد مطلقان غير مقيدين؛ لأن هذه العوامل الثلاثة ستظل قائمة، وستظل قادراً على الفعالية والتفاعل من خلالها..

"الحمد لله"، لا تنكر عليك أن الحياة صعبة، ولا تزيف لك عالمك عبر نظارة وردية.. لا، الحياة صعبة وشاقة أحياناً، تكون في بعض الأحيان وبعض الظروف، صعبة دائماً..

لكن، المهم، ألا تكون فوق طاقتك على الاحتمال.. فوق إصرارك على التغيير.

هذا هو!..

عدسة الفاتحة حتى الآن

فلنتذكر هنا، أن العدسة التي تبنيها الفاتحة، صارت الآن تضم عبر "البسملة"، و "الحمدلة" عنصرين أساسيين من عناصر الرؤية القرآنية..

عبر البسملة ثبت - في نفسك - أنك مكلف بالخلافة،

وأن لديك تخويلاً منه عز وجل للعمل، وهو تخويل مقيد بشيء واحد فقط: الرحمة.

وعبر "الحمد"، ثبتت أن مقر إقامتك الدائم سيكون الإيجابية، إنك مهما حصل، ومهما كان، ستظل تحمد الله وتثني عليه لأنك تعلم أنه أعطاك كل مقومات الاستخلاف والتغيير وأسبابهما..



الفصل الثالث

عز وجل يعرف عن نفسه

تثبت الفاتحة، بعد البسملة والحمد، صفات لله عز وجل، عبر تقديم هو بمثابة هوية تعريفية له..

فلنتذكر هنا أمرين؛ أولهما، أن الفاتحة نزلت في مرحلة مبكرة بعد العلق والقلم والمزمل والمدثر.. وهكذا فإن معرفة المسلمين بالله عز وجل لم تكن قد اكتملت بعد، ولعلها لم تكن قد وصلت إلى عشر معشارها، بل كانت تتراكم بالتدريج، مع توالي نزول آيات القرآن الكريم..

لذلك كانت الفاتحة، وفيها تفاصيل أكثر عن الله عز وجل وصفاته، بمثابة هذه الهوية التعريفية الحاسمة في "توضيح" ما يجب توضيحه عن الله عز وجل..

الأمر الثاني، هو أن هذه الهوية "التعريفية" لم تنتهِ صلاحيتها باكتمال نزول آيات القرآن الكريم، وباكتمال معرفتنا لما يجب أن نعرفه عنه عز وجل، ذلك أن الفاتحة أخذت "موضعاً" مميزاً يحتفظ لهذه "الهوية" بمكانها

ومكانتها؛ سواء عبر كونها ركناً أساسياً في الصلاة، أم عبر كونها المدخل الأساسي، للقرآن الكريم..

* * *

من أجل ذلك، فإن ما ستقوله لنا الفاتحة، عنه عز وجل، سيظل مهماً جداً، ومرتبطاً جداً، بسبب من أهميته، بتلك العدسة التي تزرعها الفاتحة في أعيننا..

وبالرؤية التي نرى من خلالها العالم، وموقعنا فيه، وعلاقتنا به..

عن العالمين الذي هو ربهم...

"رب العالمين"، هو أول اسم، أو.. أو "وصف" تعريفي له عز وجل، من هذه الهوية الثلاثية الأبعاد..

الرب، إذن...إنه الخالق، والمالك، والرازق..

لا شك في ذلك. لا جدال في أنه هو المالك والخالق والرازق.. لكن اختيار لفظ "الرب" تحديداً، قد يكون له معنى أوسع، أو على الأقل معنى آخر هنا.. دون أن يلغي ذلك معنى المالك، أو الخالق، أو الرازق..

فالفعل "ربب" الذي اشتق منه لفظ "الرب"، يحتوي من المعاني أيضاً على معنى "التربية".. ربّى الصبي قام بتربيته.. والفعل يستخدم أيضاً للأغنام والمواشي التي تربى للحصول على ألبانها دون أن تذبح، ويسمى ابن المرأة من زوج آخر "ربيباً" عندما يربيه زوجها..

كما أن ربى السحاب "جمعها وأنماها"..

وكذلك ربى المطر "جمعه وأنماه"..

إذن: التربية، الجمع، والإنماء..

لنضع هذا في بالنا ونحن نعيد تشكيل رؤيتنا، عبر استرجاعنا لتلك العدسة، ولزواياها البؤرية المفتوحة على العالم كله..

التربية؟..

أليس هذا المعنى حقيقياً جداً؟.. بالأحرى: أليس هذا هو الذي يجب أن يكون؟.. أليس هو الحقيقة التي ليست بالضرورة الأمر الواقع.

الأمر الواقع، هو أن تربيتنا تتم بأساليب مختلفة، ومن مصادر مختلفة، بعضها تحتاج إلى إعادة تربية، وبعضها تتعمد الإساءة، وبعضها تقع ضمن خانة "فاقد الشيء لا يعطيه"..

الأمر الواقع؛ هو أن مؤسسات معينة، إعلامية خصوصاً، صارت هي التي تربي، ورغم أنها يمكن أن تقوم بدور إيجابي جداً إلا أنها تقدم تربية الشوارع الخلفية.. سواء بشكل مباشر أم غير مباشر..

أما الحقيقة؛ فهي أن الله عز وجل - الرب - الوحيد صاحب الحق في أن "نتربى" حسب قوانينه وقواعده..

إنه صاحب الحق، بالتعريف..

* * *

الجمع؟..

مرة أخرى، يبدو المعنى قريباً جداً من الحقيقة، بعيداً

غاية البعد عن الأمر الواقع.. فالإيمان الحقيقي بالله عز وجل، يمسك بشخصية الإنسان المؤمن، وينظمها بشكل متوازن - بالذات يكون مركز الثقل فيها، بطريقة تجمع كل الأطراف وتلمها في نقلة واحدة..

أما عندما يكون مركز الثقل خاوياً، أو مليئاً بأشياء غير مؤهلة للإمساك بزمام الشخص وأطرافه، فإنه وإن بدا قوياً متماسكاً، سيكون "فرطاً"..

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ١٨/٢٨]..

إنها تربية لها أهداف واضحة، فالهدف ليس أن يمتنع عن منهيات هنا أو هناك، بل أن يكون امتناعه هذا ناجماً عن تماسك في شخصيته، عن صلابة ومتانة في بنيته الداخلية..

* * *

الإنماء ؟..

ليس هناك من معنى ظلم وأقصي أكثر من هذا. دوماً مفاهيم الأمر الواقع تأخذنا إلى إنماء في مقاييس مادية.. زيادة في الرصيد.. زيادة في الممتلكات، زيادة في الشهوات.. زيادة في الأولاد..

لكن الإنماء الحقيقي هو ذلك الذي يدور في أبعاد أخرى.. وبمقاييس أخرى.. إنه نموك الداخلي الذي يزيد من فاعليتك.. من إيجابيتك.. من قدرتك على الفعل والأداء.. وليس أي فعل وأي أداء.. بل الفعل الذي أنت

مطالب به، والأداء الذي يحقق الغاية من وجودك على الأرض.. إنه ذلك الإنماء الذي يشبه الحاضنة التي يضعون الأطفال الخدج فيها، فتمدهم بالأوكسجين وتعزلهم عن مؤثرات العالم الخارجي التي قد تضر بهم إلى أن يشتد عودهم..

كذلك الإنماء هنا، من الرب، إنه "الحاضنة" التي تشد عودك وتقويك من أجل أن تدخل العالم فتغيره وتعيد بناءه وتتفاعل معه لا أن تجعله يغيرك ويعيد بناءك كما يريد..

لكن الفارق هنا، أنك لا تغادر هذهِ الحاضنة تماماً، على الأقل، هي موجودة دوماً، تحيطك وتحميك وتظل تسند عودك وتقويه.. إنك لا تغادرها حقاً، إنها تظل تربيك.. إلا إذا اخترت مخطئاً أن تفقدها..

* * *

هذه المعاني الثلاثة، التربوية بما فيه الكفاية، ترتبط، كما أؤمن، بدور الصلاة في حياتنا.. بوظيفتها في إنشائنا وتكويننا..

لذلك لا غرابة، أن يكون الوصف الأول، الذي يأتي لله، في الفاتحة - الهوية التعريفية - وصفاً مرتبطاً بالتربية؛ بأن الرب هو المربي الذي يجب أن نتربى، ونجمع، وننمى من خلاله..

الإنسان مركزاً للعالم

ولكن هذا الوصف لم يطلق، مع أن الله هو المطلق

الوحيد، لكنه - الحق عز وجل - أضاف الوصف إلى ما يعرفه أكثر بالنسبة لنا، وهو الغني عن التعريف..

لم يقل: الرب، بالإطلاق..

لم يقل عز من قائل: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ أو ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أو ﴿رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ أو ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أو رَبُّ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾..

لا.. فمن بين كل ما هو ربه، من هذا الكون العظيم الفسيح - الذي خلقه بعلمه وقدرته وحكمته، فإنه تجاوز كل ما هو مبهر من وصف واختار بأن يعرف عن نفسه، ليس برب العرش العظيم، أو رب السماوات والأرض.. بل.. أن يعرف عن نفسه بأنه ربنا نحن.. نحن الذين نعتبر أنفسنا مخلوقات تافهة عديمة الشأن.

لكن لا، لا يبدو أننا تافهون.. على العكس...

لو كنا تافهين، لما كان رب العالمين، اختار هذا الاسم له..

بالذات، أن يختاره في فاتحة الكتاب.. التي ستصير "عدسة" لصيقة بأعيننا.. عبر تكرارها في كل يوم سبع عشرة مرة.. (في الحد الأدنى)..

* * *

عندما تصور الإنسان أن الأرض هي مركز الكون لم يكن على صواب بالتأكيد.. وعندما أعيد بناء تصوره على أن الشمس هي مركز الكون كان مخطئاً أيضاً.. وعندما

تشكل تصوره على أن الكون هو بلا مركز على الإطلاق، كان مرة أخرى قد جانب الصواب.. طوال الوقت، بينما الإنسان يبحث عن المركز، أو يبحث عن اللا مركز..

كان يجهل أنه هو المركز..

ليس الأمر بمدار بيضوي تدوره الأرض حول الشمس، أو المجرة حول نفسها، أو الكون حول اللا شيء..

إنه في العمق الذي يسكن الأشياء، في وجود إرادة للدوران، لا أن يكون كل شيء مسيراً فحسب..

تلك الإرادة هي مركز المركز - هي جوهره..

لذا، فإنه أنت، أنت مركز الكون..

سلسلة انقلابات أطاحت بك شخصياً

ولقد أغراهم مركزك هذا بالانقلاب عليك مرات عديدة، وأطاحوا بك من قمتك العالية المرة تلو الأخرى..

مرة زرعوا فيك أنك مخلوق تافه عديم الشأن قليل الحيلة، لا يستحق الذكر واجتزؤوا النصوص من سياقها ليدللوا على ذلك.. فكان أن آمنت بذلك، وتصرفت بالضبط كما هو متوقع من شخص يؤمن بأنه خلق ليكون بلا شأن ولا حيلة..

ومرة قالوا لك: إنك صدفة، جئت من العبث وتمضي حتماً إلى العبث، فأضعت الهدف والمقصد.. وكان كل ما فعلته هو بالضبط ما يتوقع من شخص آمن بأنه عبث..

ومرة قالوا لك: إنك مجرد نسخة مطورة قليلاً جداً من

قرد منتصب لم يعد بحاجة إلى ذيله، وآمنت بذلك، فآمنت ضمناً أنك حيوان مع إكسسوارات إضافية، فإذا بكل حياتك يعاد تشكيلها وتفسيرها لتصب في هذا القالب..

وليس لديك، كي تعود إلى مكانك القديم، إلى مركزك الذي أطاحوا بك منه ..سوى أن تؤمن بنفسك.

أن تؤمن بأنك مركز الكون..

وها هو الله ربك، يقول لك ذلك ضمناً، عندما يتجاوز كل عظيم مما خلق، ويعرف نفسه بأنه ربك..

رب العالمين..

رب من يمتلكون الوعي..

و "العالمين" لا تشمل كل شيء، ولا تضم كل ما خلقه الله.. فهي لا تشير إلى العرش العظيم - أو إلى السماوات والأرض.. أو إلى ما بينهما أو إلى المشارق والمغارب..

"العالمين".... حصراً إلى كل من يملك "الوعي" أو أدوات الوعي على الأقل، التي تجعله مهيئاً لكي ينذر، أو يهدى أو يتذكر.. أو يرحم..

ليس ذلك للسماوات - أو للأرض - أو للعرش، أو للملائكة.. ولكنه للعالمين فقط..

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٩٠].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٧]..

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/١]..

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/٩٦]..

كل هذه الآيات - ومثيلاتها كثيرات - تدل على أن للعالمين، أدوات معينة، قد يكون العقل من ضمنها، وقد يكون الأمر أوسع، من الأدوات التي تهيئ وتمهد للعقل..

المهم أنك تعلم - علم اليقين - أن الله لم ينذر عرشه ولا ملائكته ولا السماوات والأرض، ولا أنزل القرآن ذكراً لهم، ولا أرسل نبيه ليكون رحمةً لهم..

إنما أنزل ذلك كله، وجعله، نذيراً ورحمةً وذكراً.. للعالمين، ولك، شخصياً، باعتبارك من العالمين.. العالمين.. كلهم..

فلماذا "العالمين"، وليس العالم..؟ لماذا هذه الإضافة في المبنى التي تحتم حتماً زيادة في المعنى؟..

لأن هذه الزيادة، ستعطي ذلك المعنى لتعدد أصنافهم واختلاف طبقاتهم..

لقد كانت نقطة انطلاقهم واحدة ما داموا جميعاً أولاداً لآدم..

لكنهم بعد نقطة انطلاقهم الواحد تلك، تفرقت بهم السبل، واختلفوا في الطرق وفي مفترقاتها افترقوا، البعض منهم مضى حثيثا ولكن في الاتجاه الخطأ، والبعض ظل يراوح مكانه، والبعض ظل يدور في حلقه مفرغة، والبعض استطاع أن يجد بوصلة الطريق الصحيح..

مثل أطفال أشقاء لأب واحد وأم واحدة،.... تبنت كلاً

منهم عائلة مختلفة بظروف مختلفة، فنشؤوا مختلفين كما لو أنهم من عوالم مختلفة..

هذا هو معنى ذلك التنوع في العالمين.. رغم أنهم ربما قد ابتعدوا عنه، وفرقتهم عوالمهم عنه، إلا أن ذلك لم يغير من كونه ربّاً لهم..

واختار أن يعرف نفسه بذلك، رغم كل ذلك..

ربّاً للعالمين..

* * *

على اختلافهم واختلاف عوالمهم واختلاف ألوانهم وطبقاتهم وأجناسهم.. هو ربهم جميعاً..

رب أولئك الذين يعيشون في القصور الفارهة.. وأولئك الذين يعيشون تحت الجسور وفي الأنفاق.. رب أولئك الذين ولدوا وأقيمت لولادتهم الاحتفالات وتصدرت أنباء ولادتهم صفحات المجلات، ورب أولئك الذين ولدوا سراً وألقوا في العتمة على باب مسجد أو ملجأ، أو حتى في القمامة..

رب أولئك الذين فوق، ورب أولئك الذين تحت.. ورب أولئك الذين بين بين، يرنون إلى فوق بأمل، وينظرون إلى "تحت" بجزع.. رب أولئك يولدون ويوضع لهم رصيد ووديعة في البنك، ورب أولئك الذين يستدين آباؤهم ليسدوا مصاريف الولادة.. رب الذين دراستهم في المرحلة الابتدائية، تكلف أكثر مما ستفعل في الجامعة، ورب أولئك الذين لا يملكون ثمن الزي المدرسي الموحد.. رب أولئك

الذين ترمى فضلات طعامهم - بالأكوام - في القمامة.. ورب أولئك الذين يبحثون عن الطعام في القمامة.. رب سيدات المجتمع الثريات وقلوبهن المتخمة بالخواء والتشاوف.. ورب النسوة اللواتي يفقن من الفجر، وقبل الفجر، ليبدأن رحلة الكدح اليومي بين سماسرة العمل والمساومة في بيع المحاصيل.. رب أولئك النسوة اللواتي يستخدمن مساحيق تجميل تكفي لإطعام عشر عوائل.. ورب النسوة اللواتي ما عرفن غير القهر قناعاً لوجوههن.. رب الأصحاء المعافين.. ورب الأطفال المعوقين.. رب الجثث مجهولة الهوية تركت في العراء بلا مراسيم.. ورب الجثامين التي تنصب لها السرادقات وتقام لها الاحتفالات التأبينية.. رب أولئك الذين يبحرون في اليخوت المترفة.. ورب أولئك الذين يغرقون، بينما هم في مراكب صغيرة في عمق المحيط، بحثاً عن فرصة أفضل، يسمونها هجرة غير شرعية.. رب أولئك المتسولين عند تقاطعات المرور.. ورب أولئك الذين يمدون بأيديهم ليمنحوا النقود من السيارات المترفة وكل همهم ألا تمس أيديهم أيدي المتسولين.. رب أولئك الذين يعيشون حياة 'خمس نجوم'.. ورب أولئك الذين حتى لم يسمعوا بذلك.. رب الأغبياء الأغنياء الذين سيتكفل مالهم بشراء الشهادة واللقب والوجاهة الاجتماعية... ورب الأذكياء الفقراء، الذين سيضيع ذكاءهم فرصة مهدرة في مطحنة البحث المبكر عن العمل.. رب أولئك الذين يحلقون في درجة رجال الأعمال، ولا يرضون بالأدنى.. ورب أولئك الذين يتدبرون

بصعوبة أجرة باص مهترئ تشك أنه سيكمل الرحلة.. رب النسوة الفضليات، اللاتي لم يخطئن يوماً لأنهن لم يخرجن يوماً من لفافة الحماية حولهن.. ورب النسوة اللواتي بعن أجسادهن من أجل دواء وحليب ورغيف خبز... رب أولئك الذين حميتهم مكلفة أكثر من الطعام العادي.. ورب أولئك الذين ينامون على عزف أنين الجوع في بطونهم.. رب أولئك الذين يعلمون.. وأولئك الذين لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون.. رب المؤمنين المتقين - لا يعلنون عن إيمانهم بين كل جملة وأخرى.. ورب أولئك المدعين، الإيمان عندهم كلمة لا أسهل منها.. ولا أسهل من تجاوزها أيضاً.. رب السجانين والمسجونين.. ورب الضحايا والجلادين ورب الزبانية والمعذبين.. رب أولئك الذين قضوا زهرة شبابهم داخل حفرة في معتقل.. ورب أولئك الذين تسببوا بذلك وهم لا يكفون عن الحديث عن العدالة والحرية.. رب أصحاب المبادئ حتى لو كانوا ملحدين.. حتى لو كانوا بلا شمارات.. ورب الذين لا مبادئ عندهم حتى لو كان عندهم مظاهرها وشماراتها.. رب المشردين المهجرين اللاجئين.. كان عندهم بيوت مثل الجميع، ربما أكبر وربما أصغر من بيوت الجميع.. لكن تجار الحروب والدين والسياسة، من ملأ كل زمان ومكان.. شاؤوا أن يتقاسموا مصالحهم - وكان أن هجر هؤلاء.. رب الناجحين والفاشلين.. الأولين والآخرين.. رب الثائرين والنائمين.. رب أولئك الذين تكلفهم نوبة زكام بسيطة في مشفى فندقي بقدر ما يمكن أن يقيم أود

عشرة مرضى بمرض عضال.. ورب أولئك الذين يموتون من أجل لقاح تافه لا يتعدى السنتات العشر..

رب أولئك الذين لا قضية لهم ويخوضون مع الخائضين.. ورب أولئك الحالمين بعالم أفضل من هذا، عالم أقل تناقضاً وأقل بشاعة.. رب الذين يريدون أن يبقى العالم كما هو.. ورب أولئك الذين يحلمون بعالم جديد أكثر عدالة.. كل هذا ، وكل هؤلاء وأكثر، هو ربهم جميعاً..

رب العالمين..

* * *

بعد "رب العالمين"، يأتي الوصف الثاني في التعريف الثلاثي الأبعاد الذي اختاره عز وجل ليكون في الفاتحة..

"الرحمن الرحيم" وهو ذات الوصف الذي قيّد استخدام اسمه بقيد وشرط الرحمة، بحيث إن أي استخدام لاسمه، لا يقع تحت هذا الشرط، سيكون خارجاً - بالتعريف - عن التخويل الذي كلفنا به..

"الرحمن الرحيم" فلنتأمل فيها إذن..

عن الرحمن أولاً....

يقال عادة، إن "الرحمن" عامة ومطلقة لكل البشر.. وإن "الرحيم" تخص المؤمنين فقط..

.. لكن هذا وحده قد لا يملأ مداد المعاني الذي لا يملأه شيء، ولا سبعة أبحر..

فلنحاول أن نتقرب أكثر، وننقب أكثر.. لنعرف أكثر..

الألف والنون، التي دخلت على الفعل الثلاثي رحم، تفيد المبالغة، على وزن فعلان..

وهذا يعني، في حالة "الرحمن".. الحد الأقصى من الرحمة، الذي يمكن تخيله، أو بالأحرى، في الحد الأقصى الذي لا يمكن تخيله..

وهذا مناسب جداً، لما نعرفه من أوصافه عز وجل..

ولكن مرة أخرى ربما ليس هذا كل شيء..

* * *

الألف والنون، تفيد المبالغة.. ولكنها تفيد النسب أيضاً: فمما يقال عن شخص ما، شديد الالتصاق بقربه من الله عز وجل: إنه رباني، أو كما جاء في الذكر الحكيم عن الحياة الآخرة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٤]...

إذن لفظ الرحمن هنا، يفيد معنى المبالغة في النسب إلى الرحمة.. حاشا لله أن يكون منسوباً إلى شيء، لكن المعنى يتوازى ويتناسق مع أن الله - وهو الذي لا يسأل عما يفعل - قد كتب على نفسه الرحمة.. ولم يكتب على نفسه أي شيء آخر على الإطلاق..

﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٦/٥٤]..

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦/١٢]..

لعل هذا يفسر، تلك النسبة إلى الرحمة، في واحد من أكثر أسماء الله الحسنى مدعاة للتأمل..

الرحمن..

الرحمن، ثنائية الأسماء الحسنى وفرديتها

لم يرد ذكر لفظة الرحمن، بالتأكيد، أكثر من سائر الأسماء الحسنى (٥٧ مرة بالمقارنة مع ٩٥ مرة للرحيم مثلاً).. لكن ذكر الرحمن ورد بطريقة مميزة جداً، مميزة عن كل أسماء الله الحسنى التي ورد ذكرها بالقرآن الكريم ..ذلك أن الرحمن، هو الاسم الوحيد، الذي يذكر منفرداً - دون أن يتبع باسم آخر، كما هو الحال مع الأسماء الحسنى الأخرى له عز وجل.. والاستثناء الوحيد هنا، بطبيعة الحال، هو لفظ الجلالة ذاته..

كل الأسماء الأخرى، عدا الرحمن، ترد في سياق ثنائي، أو أكثر (غفور رحيم، عزيز حكيم، الملك المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر..)..

وحده الرحمن، يرد ذكره في كل السياقات التي ورد فيها، دون أن يتبعه اسم آخر..

كما لو أنه، لفظ مكتفٍ ومستغنٍ عن أي شرح آخر، يكفيه أنه الرحمن.. بلا أي وصف آخر، بلا أي تثنية على هذا..

كما لو أنه، كلفظ يحتوي كل الأسماء الأخرى.. يضمها ضمناً.. وتكون كل معانيها موجودة فيه..

أو كما لو أن الرحمة التي كتبها الله على نفسه، هي أظهر صفاته، وأكثرها بروزاً، وأكثرها "أهمية" في تعاملنا معه..

ربما.. وربما أيضاً توجد - بالإضافة إلى كل هذا - معان أوسع وأعماق أخصب..

الرحمة بعيداً عن التفكير بالتمني

لكن ما هي الرحمة في جوهرها، التي نسبَ الله نفسه لها، والتي كتبها الله على نفسه؟.. ما هي في أوضح صورها وأكثرها شمولية؟..

قد يبدو السؤال ساذجاً للوهلة الأولى.. فالرحمة معروفة.. ونحن كلنا نطلب رحمته عز وجل.. وليسَ منا من لا يأمل أن ينال رحمته..

لكن ما هو رائج عن الرحمة، هو الصورة الذهنية لها في رؤوسنا، بالذات المعنى الذي نتمناه لها، والذي قد يريحنا..

لكن الرحمة، في معناها القرآني، وهو المعنى الذي يجب أن تدور حوله كل الأذهان، قد يكون مختلفاً، ليس الاختلاف هنا اختلاف تضاد، بل قد يكون اختلاف سعة.. قد يكون المعنى أوسع بكثير، وحدوده أبعد بكثير، الحدود الضيقة المباشرة للمعنى في أذهاننا..

* * *

فلنتوقف قليلاً عند المعنى الرائج في أذهاننا، والذي ترسخه المعاجم إلى حدّ بعيد، فتذكر عن الرحمة أنها: الرقة والعطف..

لا ريب أن النموذج الأكثر شيوعاً للرحمة، والأكثر قرباً من هذا الفهم: هو نموذج الأم العطوفة الرقيقة ذات القلب الرحيم، والتي نؤمن أن الله سيكون أرحم بنا منها، على شدة رحمتها..

نعم.. هذا لا شك فيه.. إنما هذا جانب من الرحمة.. وقد يكون مختصاً مثلاً بـ (الرحيم)، وليس بـ (الرحمن).. أما (الرحمن)، وما دام الاسم مرتبطاً بالله عز وجل إلى هذه الدرجة فربما المعنى مرتبط بالصورة الأوسع للرحمة.. وليس بجانب منها..

نموذج الأم العطوف: هل هو إيجابي دوماً؟

فلنرجع إلى الأم الرحوم العطوف على أولادها.. ولنحاول أن نتدارس رحمتها بمعزل عن التفكير بالتمني..

لا شك أن الأم التي ليس في قلبها عطف ورحمة على أولادها هي أم سيئة، ولا شك أن أولادها سينشؤون عطشى إلى الحنان، وسيكون عطشهم هذا بمثابة عوق في نموهم ونضوجهم العاطفي وحتى الفكري..

لكن لا شك أيضاً، أن الأم التي تبالغ في الرقة والعطف أمام أولادها، تضعف أمام ضعفهم ودموعهم وطلباتهم، تؤدي أيضاً إلى إحداث (عوق) في نموهم النفسي والفكري، وتنتج على الأغلب أطفالاً اتكاليين مدللين

وفاسدين.. وهي بهذا ليست "الأم النموذجية" على الدوام.. فالمبالغة في الرحمة، قد تؤدي، كما في حالة فقدانها، إلى إنتاج بشر غير أسوياء..

لست بصدد التشبيه هنا، فهو عز وجل، ليس كمثله شيء، لكن فلنتذكر أن "الرحمن الرحيم"، سبقت برب العالمين، وقد رأينا كيف أن الرب، بالذات رب العالمين، لها معانٍ عميقة تتصل بتربيتنا - بنمونا.. وهذا كله، لا يبدو بعيداً عن "الرحمة" عندما ننظر إليها من هذه الزاوية.. خاصة وأن السياق كله جاء في مركز ثقل مهم من "الصلاة"، والتي نعتقد أن من وظائفها المهمة هي وضعنا على سكة النمو الصحيحة، على نسق النمو الصحيح..

* * *

فلنبحث في الرحمة قرآنياً، كيف هو، كيف هي رحمته؟.. وأين يمكن البحث عن جواب ذلك، أكثر من سورة، تحمل هذا الاسم بالذات؟..

عالم سورة الرحمن

لفظة "الرحمن" لم ترد إلا مرة واحدة في سورة الرحمن.نعم، إنها مرة واحدة فقط، ولكنها (مرّة) مهيمنة على نص السورة كله.. كل ما هو موجود في سورة الرحمن من أفعال الله عز وجل، سيكون منسوباً للفاعل الوحيد في السورة، الذي لم يرد له اسم، أو صفة أخرى،

ولم يظهر أبداً عبر الآيات إلا باسم الرحمن، في الآية الأولى[(١)]..

إذن كل سورة الرحمن، عن "الرحمن"..

فما الذي تقوله لنا، هذه السورة..؟

* * *

تقدم لنا السورة صورة عن عالم متوازن جداً.. تحكمه القوانين والسنن.. ويتحرك بحسابات دقيقة جداً.. كل شيء فيه موزون.. ومتوازن ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٥٥/٥-٦]..

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١٠-١٢]..

إنه عالم متوازن، الظواهر الكونية فيه تجري وفق قوانين واضحة ومتوازنة، وكلها يرتبط بعضها مع بعض بتوازن أيضاً، لتنتج عالماً متوازناً،... تماسكه وقوته نابعان من التوازن..

لكن عالم الميزان الدقيق هذا ليس في الظواهر الكونية و عالم المادة فقط.. ولكنه يجب أن يكون أيضاً، في العلاقات بين البشر.. فـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: ٥٥/٧]- تتبع فوراً بـ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى

---

(١) مع الإشارة إلى اللازمة المتكررة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ التي لا يمكن اعتبار أن فيها اسماً من أسماء الله الحسنى..

ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ [الرحمن: ٥٥/٨-٩]..

فالميزان هنا، كما في الآية السابقة، هو تلك الاستعارة اللفظية التي تعبر عن ذلك التوازن الدقيق بين كفتين، قد يكون بين كفة المطالب والاحتياجات، أو بين الروح والمادة، أو بين كفة الفرد وكفة المجتمع، أو بين كفة الحقوق وكفة الواجبات..

التوازن في ذلك كله، وبين ذلك كله، وبين أكثر من ذلك، هو الذي يصنع عالماً أرضياً موازياً لعالم الظواهر الكونية بتوازنه.. بارتباطه بالرحمن.. وبارتباطه بالميزان، ذلك أن ارتفاع المجتمع، لا يكون، إلا كما ارتفاع السماء، عبر وضع الميزان..

وتذكرنا ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٩] أن عملية الوزن، والموازنة، هي عملية مستمرة ودائمة، وهي لا تشمل فقط الأشياء المادية التي تقاس وتكال وتوضع في كفتي الميزان، ولا تشمل فقط القرارات الخطرة والتي تحتاج (عادة) إلى عمق تفكير، بل هي حالة وزن وتوازن مستمرة، تضعك أنت شخصياً في واحدة من كفتي الميزان، وتضع في الكفة الأخرى ما يجب أن تكونه، وما يجب أن تفعله.. ستضع العالم كما هو في كفة، وتضع العالم كله كما يجب أن يكون في الكفة الأخرى، وتحاول أن توازن، تحاول أن تساهم في تعديل الميزان، في جعل الكفتين متعادلتين..

وستعرف بالتدريج، أن كفة حقوقك، عندما تتوازن مع كفة واجباتك - فإن ذلك سيساهم، بالتدريج في صنع عالم أكثر توازناً.. عالم أكثر عدالة..

عندما لا يبغي شيء على آخر

وفي عالم الميزان المستقيم هذا، المبني على توازنات المجتمع، فإن جوهر التوازن، سيكون ألا (يبغي) شيء على شيء آخر، يظل هناك حاجز - برزخ - يبقي كل شيء في حدوده وضمن إطاره، ضمن حاجته الوظيفية التي سيفقدها لو وضعت في موضع آخر - وهكذا فإن توازنات الغيب والمادة والفرد والمجتمع والحق والواجب - كلها ستثمر (اللؤلؤ والمرجان) ما دام لا شيء فيها يبغي على الآخر.. ما دام كل شيء في موضعه..

معنى الرحمة الحقيقي

عالم التوازن، هذا، وتفاصيله، هو العالم الذي ابتدأت (صورته) أو (سورته) بذكر الرحمن، فالرحمة المنسوبة للرحمن هي ليست المبالغة في الرحمة بمعناها التقليدي، صورة الأم التي تعفو باستمرار عن أولادها، ولكنها الرحمة بمعنى التوازن العميق الذي يلغي أسباب الخطأ ويفقده مبرراته، الرحمة بمعنى ألا يبغي شيء على شيء، ويظل هناك الحد الذي يحافظ على كيان كل شيء ويكون بمثابة صمام أمان للصورة بأسرها..

ولذلك، فإن ابتداء السورة بذكر اسم الرحمن،

وارتباطها كلها بالرحمن، لن يلغي العقوبة التي يجب أن تحل، على من يستحق العقوبة.. فالرحمة ورحمة الرحمن هي في جوهرها التوازن والعدل، والتوازن والعدل لن يستقيما إذا تساوى الجميع ، بل سيكون هناك ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٤١].. دون أن يكون هناك أي تناقض مع رحمة الرحمن،.. فلنلاحظ هنا أنهم "المجرمون"، إنهم ليسوا مجرد من أخطأ أو عصى أو من ضل.. إنهم المجرمون بامتياز؛ لقد تجاوزوا كل الحدود، كل قوانين التوازن في الكون من حولهم.. وكانت جهنم، في النهاية مجرد محصلة، مجرد نتيجة نهائية لتكذيبهم وإجرامهم ..وهذا عدل لا يتنافى مع رحمة الرحمن بل يتعاضد ويتناسق معه، بل إنه جزء جوهري منه..

ومن أجل هذا، سيكون أيضاً، في الجانب الآخر من الأمر، أولئك الذين كانوا جزءاً من التوازن، ولم يخرقوه أو يخلوا به، أولئك لهم، في تحصيل حاصل أيضاً، وبجزء من رحمة الرحمن ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠]..

نقطتا توازن: القرآن والبيان

وبين البداية والنهاية - بين قوانين التوازن ومحاولات الإخلال، وبين جهنم التي يساق إليها المجرمون، والإحسان الذي يجازي الإحسان - وضع الرحمن نقطتي توازن مهمتين، تساعداننا من أجل أن نكون على الجانب

الصحيح من الاختيار.. جانب الرحمن.. أين نقطتا التوازن هاتان؟..

لقد كانتا موجودتين دوماً - أمام أعيننا..

في مقدمة سورة الرحمن!!..

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ٥٥/١-٤]..

عَلَّمَ القرآن إذن - ليس بالضرورة أن يكون معنى (علَّم) هو ما في أذهاننا عن التعليم (وما في أذهاننا عن التعليم شيء مؤسف يختلط فيه التعليم بالتلقين الأصم والأبكم)..

علَّم القرآن، بمعنى أنه وضعه علامةً لنا، علامةً على طريق الاختيار والموازنة بين كفتي الميزان، علامة على درب حياة كل منا، تدله على الطريق الصحيح في كل مفترق طرق يواجهه..

نعم، إنه بمثابة العلامة على الطريق، المنارة التي تنير ظلمة البحار، البوصلة التي تهدي إلى الاتجاه الصحيح..

* * *

لكن هذا ليس كل شيء، فرحمة الرحمن، وضعت نقطة أخرى للتوازن، تنتهي معها كل حجة، ذلك أنه لم "يعلم القرآن" فحسب، بل "علم البيان" أيضاً، والبيان هو كل أدوات الفهم والإدراك والتجريد التي اختص عز وجل الإنسان بها دوناً عن كل مخلوقاته الأخرى..

(علم) القرآن، و (علّمه) البيان هنا - تشيران إلى خطين متوازيين:

القرآن، علامة وبوصلة على درب حياتنا، والبيان، وسيلة لفهم هذا القرآن ودوره في حياتنا وفي دورنا على هذه الأرض..

إنهما جناحان لا يمكن التحليق من دونهما، لا يمكن رفع واقعنا من دونهما معاً، القرآن، وأدوات فهمه وإدراكه..

من دون الفهم، والقدرة على استنباط الجديد والمتجدد، سيتحول القرآن، إلى لوح حجري لا يتفاعل مع الواقع ولا يغيره..

ومن دون القرآن، ستكون أدوات الفهم ضائعة بلا بوصلة - بلا عتلة - بلا حدود..

معاً: القرآن والبيان، في وضع هذا العالم الذي خلقه الرحمن..

عالم متوازن: عالم جديد أكثر عدالة و تماسكاً..

* * *

خلق الرحمن، الذي ليس فيه تفاوت، هو الذي ينتج عالماً متماسكاً بلا فطور..

تنزيل هذا الخلق على الواقع وصنع مجتمع بلا تفاوتات، هو الذي ينتج إنساناً بلا فطور..

إنسان توازن فيه الجانبان اللذان نادتهما الآيات: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾..

ثم إنه الرحيم..

بعد الرحمن، يأتي "الرحيم"..

لفظ "الرحيم"، في حقيقته أقرب إلى صورة الأم العطوفة الرقيقة من "الرحمن"..

ولا يتنافى هذا طبعاً مع ما شرحناه من معنى رحمة الرحمن، بل هو بمثابة وضع هامش أوسع يتم فيه التخفيف عن أولئك الذين لم يحققوا التوازن المطلوب، ربما لأنهم حاولوا على الأقل، لكن محاولتهم لم تكف، أو ربما لأن الظروف حولهم كانت أشد وأقسى، أو ربما لأنهم غُرِّرَ بهم.. أو ربما لأسباب أخرى لا نعرفها.. لكن رحمة الرحيم تأتي بمثل الأخذ بشروط مخففة، أو إصدار حكم استئناف يخفف الحكم الأول الذي نتج عن عدم تعادل كفتي الميزان..

الملفت للنظر في اسم الرحيم، في التراكيب المزدوجة المؤلفة من اسمين لله تعالى، أن اسم "الرحيم" نادراً ما جاء في مقدمة هذه التراكيب.. وإنما جاء على الأغلب تالياً لاسم آخر..

ففي الـ (١١٥) مرة التي ذكر فيها اللفظ - في (٩٥) مركباً مزدوجاً - كان لفظ الرحيم على الأغلب تالياً لألفاظ أخرى هي: الغفور الرحيم، التواب الرحيم، الرؤوف الرحيم، العزيز الرحيم، وطبعاً الرحمن الرحيم..

فكون لفظ الرحيم جاء تالياً - على الدوام، في الأغلب

- للفظ آخر، يفسر أن رحمة "الرحيم" تأتي مشروطة ومكملة لصفات أخرى من صفاته عز وجل: وهو أمر مفهوم جداً في الغفور، الرحيم، التواب، الرحيم: ذلك أن الرحمة هنا جاءت بعد المغفرة (التي غطت الذنب) والتوبة (التي قطعت جذور الذنب)، أو مع الرأفة (بالغ الرحمة وخاصها)، والعزة..

وهذا كله، يعني أن معنى الرحيم يدخل في هامش (الاضطرار)، عندما يضطر الإنسان، هنا أو هناك، إلى أن يتجاوز حداً معيناً، فيكون، بحكم اضطراره ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ مع أنه قد يبدو أنه كذلك، لكنه باضطراره دخل في هامش آخر، وقانون آخر..

* * *

فلنتنبه هنا إلى أن سورة الرحمن، هي مدنية، رغم أنها تشبه، في أسلوبها وجوها، السور المكية..

لكن لهذا، مرة أخرى، ودوماً، دلالته المميزة، كما لو أن سورة تبين رحمة الرحمن بمعناها الواسع، وترسم صورة هذا العالم المتوازن، ما كان لها إلا أن تتنزل في المدينة؛ أي عندما يبدأ المجتمع المتوازن بالنهوض والقيام..

* * *

ليس الرحمن فقط إذن، ولا الرحيم وحده..

بل "الرحمن الرحيم"..

مركب لفظي يتواءم فيه معنى الرحمة العامة مع الخاصة؛ العامة: التي هي ذلك التوازن الذي بنى عليه الكون ابتداءً، والذي منح الجميع فيه الفرصة للإسهام في بناء عالم متوازن..

والرحمة الخاصة، التي هي النظر بالشروط المخففة، وإفساح المجال، من يستحق هامش الاضطرار..

الرحمة التي تخرجك من الرحم

وعندما يصير فهمك "للرحمن الرحيم" جزءاً من رؤيتك الإيجابية للعالم، جزءاً من العدسة التي تنظر من خلالها إلى العالم، فإنك ستعتبر أن مهمتك في إعادة بناء العالم، تتعاضد وتتقوى بالرحمة العامة التي أودعها الله في بنية الكون: التوازن..

ولذلك فإنك تشعر أنك جزء من رحمته، عندما تعيد التوازن لميزان اختلت كفته هنا أو هناك..

سيكون عملك معززاً برحمتين؛ العامة التي تأمل أن تصير جزءاً منها.. والخاصة التي ستأمل أن تشملك، على اضطرار هنا، أو خطأ هناك.. لا يخلو منه إنسان..

مع "الرحمن الرحيم"، ستشعر بأنك مغمورٌ برحمته..

لكنها الرحمة التي تقويك، الرحمة التي تجعلك أصلب.. وأكثر إثماراً.. وأكثر فاعلية..

إنها (الرحمة) التي تخرجك من (الرحم): تجعلك تولد من جديد..

عن البعد الرابع: رصيدنا كله

يكتمل التعريف الثلاثي الأبعاد، بمالك يوم الدين..

وكما مع كل شيء، صارت الكلمة لا تكاد تثير الانتباه، ولا نجد فيها غير الدلالة السائدة في الأذهان عن السيادة، والحكم في يوم الدين..

لكن لفظة (مالك) هنا، تطلق سراحنا في آفاق أخرى، تدق مسماراً صغيراً في جدار المعاني، وتجعلنا نتسرب معه، نحو ما خلف الجدار، فإذا بالعالم يصير عالماً مختلفاً مضيئاً.. وإذا بالإنسان يشعر أن بإمكانه أن يبني هذا العالم.. ويحوله من الواقع الافتراضي، إلى أرض الواقع..

التملك، أو الحيازة، يستعمل عادة مع مقتنيات ثلاثية الأبعاد، مقتنيات مادية.. بالمعنى المباشر المعروف..

لكن هذه الهوية الثلاثية، لله عز وجل، تتجاوز مرة أخرى ذلك، وتتجاوز الأبعاد المادية للحيازة، وتعرّف الله باعتباره أنه مالك لشيء غير مادي، وغير ملموس.. ولا يمكن تعبئته بقوارير ولا تسويقه حتى عبر آلة الإعلام التي تبدو قادرة على تسويق كل شيء..

من بين كل ما يمتلكه مالك الملك، وهو مالك كل ما يمكن أن يمتلك في هذه الدنيا وفي سواها.. فإن الفاتحة تتجاوز كل ذلك وتتجاوز كل ما يبهرنا عادة من المقتنيات التي عودتنا أخلاقيات السوق على تثمينها وتقديرها.. وتتجه نحو شيء آخر تماماً..

هذه المرة، التملك له شكل مختلف، شكل يفجِّر مفاهيمنا التقليدية عن الأشياء وعن قيمة الأشياء.. وعن طبيعة الأبعاد التي تحكم حياتنا..

هذه المرة، القيمة العليا للتملك تكمن في بعد آخر تماماً غير الأبعاد الثلاثة..

إنه امتلاك البعد الرابع.. الزمن..

هذا هو أعلى ما يمكن امتلاكه..لأنه ما لا يمكن امتلاكه حقاً إلا منه عز و جل..

ولهذا فقد جاء في الفاتحة..

* * *

للوهلة الأولى، سيبدو لك أن الزمن هو ما لا يمكن أن يملكه إنسان، سواء كان قارون أم فرعون أم أوناسيس أم أي من أعضاء قائمة فوربس للأثرياء ومثيلاتها ممن نعلم أن أملاك بعضهم تفوق قدرتنا على الخيال وعلى الإحصاء..

كل ذلك وأكثر، نفهمه، لكننا لا نستطيع أن نتصور أنهم يمتلكون الوقت، أو يستطيعون تحويله إلى أرصدتهم السرية وخزائنهم المصفحة.. ومهما حاولوا، فإن وقتهم عندما يبلغ نهايته، فإن أرصدتهم وناطحات سحابهم وجزرهم.. لن تزيد ثانية أو تضيف دقيقة إلى وقتهم..

الوقت، يساوي بين الجميع، مهما كانت المشافي باهظة الثمن والعلاج نادراً.. لابد أن يأتي وقت ما، ينتهي فيه وقت الجميع..

الوقت، لا يملكه أحد..

إلا مالك يوم الدين..

أو هكذا سيبدو للوهلة الأولى..

* * *

للوهلة الثانية، سنكتشف أننا لا نملك شيئاً بقدر الوقت، إلا أن امتلاكنا له امتلاك من نوع مختلف.. صحيح أن الزمن لا يمكن وضعه في قارورة، أو في علبة أو خلف" فترينة".. لكنه كل ما نملكه حقاً، بمعنى أنه الشيء الوحيد، الذي يتساوى في امتلاكه جميع البشر، فقيرهم وغنيهم.. ما إن تبدأ حياة كل منا، منذ أن نلج هذا العالم، حتى تقلب تلك الساعة الرملية، وتبدأ حبات الرمل بالتسرب من الخانة العليا إلى السفلى ..حبات الرمل تلك هي كل ما نملكه، وهي رصيدنا كله.. كل منا له عدد محدد ومحدود من الحبات، يختلف من فرد لآخر.. ولكن، ومع كل ما نقتنيه في حياتنا، فإن حبات الرمل هذه، هي أهم ما نملكه.. حتى لو كنا غير قادرين على إمساكه بأيدينا..

كل ما نملكه، من الأشياء الملموسة، هي محض معايش، بعضها ضروري ولا عيش من دونه، بعضها كماليات صارت تبدو ضروريات، بعضها ضار، وبعضها نافع، وبعضها لا يضر ولا ينفع..

عبر حبات الرمل تلك، نتمكن من أن نحصل على هذه المعايش، أن نحوزها وأن نقتنيها..

وعبر حبات الرمل، يمكن لنا أيضاً، أن نحول كل حبة رمل منها إلى أرض خصبة، أرض مستثمرة..

لو وعينا طبيعة امتلاكنا لها..

الاستخلاف في الوقت

ولكن امتلاكنا لحبات الرمل تلك، للوقت، لذلك البعد الرابع، هو في حقيقته امتلاك من نوع خاص، إنه حيازة مؤقتة فحسب - نملكه بقدر عدد الحبات، ثم ما إن تنفد، حتى يؤخذ منا..

إنه في حقيقته، تخويل استعمال فقط، الذي هو جوهر الاستخلاف على الأرض..

أما مالكه الأصلي، فهو الوحيد الذي يمكنه حيازة الوقت، حيازة البعد الرابع، وطيه، واسترجاعه، ذلك أنه المطلق المنزه عن الأبعاد - بل خالق ومبدع الأبعاد كلها.. مثنى وثلاث ورباع.. إلخ..

الله عز وجل، هو مالك الثواني والدقائق والساعات والأيام..

إنه مالك الزمن.. بكل تقسيماته..

إنه مالك اليوم، ويوم غد، ويوم أمس..

إنه مالك يوم الدين..!

وحياتك ملحمة تبدأ من شروق الشمس..

"اليوم"، هو الوحدة الزمنية التي اختارها عز وجل

لتكون قياساً زمنياً للإشارة إلى "البعث" أو "القيامة": لذلك فإن لدينا يوم الدين، يوم القيامة، اليوم الآخر، يوم البعث، يوم الحساب ..يوم التغابن، يوم الفصل..

هذا غير الآيات الأخرى، التي تصف يوم القيامة بيوم أيضاً دون اسم محدد مثل الأسماء السابقة، مثل ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٧٠/٤٤]، ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٥] ..﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣﴾ [الزمر: ٣٩/١٣] ..﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ٤٠/١٦]، وغيرها كثير من الآيات التي تتعامل مع "يوم" القيامة.. وليس أي وحدة زمنية أخرى..

ربما يكون هذا له معنى مرتبط بأن اليوم، قد يأتي عند العرب ليفيد الوقت بالمطلق، وقد يكون مرتبطاً بمعناه اللغوي الأصلي: الوقت من طلوع الشمس إلى مغربها، رغم أن ذلك لن يحدث فعلياً يومَ القيامة، لكن ليذكرنا بوقت الفاعلية والنشاط والجهد، الذي دارت حوله، وعليه، أوقات الصلاة الخمسة للسبب ذاته، كل يوم، بهذا المعنى، وحدة زمنية مستقلة مرتبطة بحركه الكون: حركة الشمس والأرض ودوران كل شيء في مداره يتطلب أن تكون أيضاً أنت في مدارك، بفارق أن مدار الأرض، والشمس، وكل شيء آخر، هو مدار وضعه عز وجل وليس للأرض أو للشمس أن تخرج عنه، أما مدارك أنت، فلك الخيار والإرادة في أن تخرج عنه (وتتحمل نتائج ذلك لاحقاً)، بل إنك أنت من لك الحق في صنع هذا المدار وإعادة تشكيله ما دام محوره ثابتاً..

يذكرك لفظ (اليوم) بكل هذا، ويجعل من كل (يوم) في حياتك مشروع حساب: **هل ساهمت في شروق الشمس فيه؟.. هل ساهمت في جعلها في أعلى نقطة لها في مدارها؟.. هل حاولت أن تحافظ عليها؟.. هل جعلتها تأفل؟.. هل تحفزت في انتظارها وهل مهدت لفجر آخر؟..**

كل حياتنا يمكن أن تختصر في ملحمة يوم واحد.. البعض يفضل أن يجعل منها ملهاة، في عبث سخيف.. والبعض يجعلها مأساة في سلبية قاتمة، والبعض يجعلها بلا ملامح في خوض مع الخائضين، ولكن كل حياة يمكن أن تكون ملحمة، يمكن أن تقدم إضافة لحياة الجميع، يمكن أن تجعل الأرض مكاناً أفضل..

كل حياتنا، بعد أن نجردها من التفاصيل غير الضرورية، لا تكون غير (يوم) واحد بين الظل والضوء، بين طلوع الشمس وغروبها، بعضهم يفضل الظل، وبعضهم يساهم في الضوء، وبعضهم لا يبالي..

لكن (اليوم) هو اللفظ الأكبر دلالة على حياتنا برمتها..

ولهذا جاء في الفاتحة، لتذكرنا بحبة رمل، هي كل رصيدنا..

* * *

لكن لماذا يوم الدين، وليس يوم القيامة، أو البعث أو الحساب، وهي أسماء وردت في القرآن الكريم، أكثر مما ورد يوم الدين..

لكن الفاتحة، بموقعها المركزي سواء في القرآن أم في الصلاة، لا تذكر غير "يوم الدين"..

لا بد أن يكون هناك مغزى في ذلك..

"يوم" كان التحدي الابليسي..

من خلال العدسة القرآنية، فإن يوم الدين، كان هو أول اسم أطلق على يوم القيامة، قبل أن يستخدم أي اسم آخر..

كان ذلك في بداية مبكرة جداً، منذ أن خلق الله النوع الإنساني، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، فكان التمرد الابليسي على الأمر، ومن ثم ذلك التحدي الذي تقع حياتنا بين شقيه، بين أن نكون عند حسن ظن إبليس، أو أن نخيب توقعاته..

يومها، وعندما طرد إبليس من رحمة الله، وفي تلك اللحظة الحاسمة، جاء الوعيد الإلهي صريحاً، ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/٣٢-٣٥]..

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٣٨/٧٥-٧٨]..

يوم الدين إذن، هو أول ما استخدم من أسماء ذلك اليوم الذي تظهر فيه الحقيقة الكاملة للأشياء، وتصطف كل الأجزاء والتفاصيل في إطارها الكامل المتكامل، سيكون لكل جزء موقعه من الصورة والسياق والإطار، وسيكون تقويم الخير والشر من خلال هذه الرؤية الشاملة، سيتكون الحكم، سيدان كل ما فعلنا، كل ما أنجزناه، من خلال هذه الرؤية الشاملة..

الرؤية الشاملة للحياة هي (الرؤية الكاملة)، ما دامت ليست رؤية بشرية لديها قصر نظر هنا أو بعد نظر هناك أو عمى تجاه لون معين.. وهذا هو معنى "الدين" في القرآن الكريم، كما مرّ ذلك في "ملكوت الواقع"، ليس "يوم البعث من القبور"، فذلك مجرد بداية، ولا يوم يقوم الناس، فذلك تمهيد لما سيحدث، ولا حتى يوم الحساب، فما دام الحساب مستمراً فذلك يعني أن الحكم لم يصدر بعد - ولكنه يوم "الدين"، حين يصدر الحكم.. حين ينتهي كل شيء.. حين تتوج الصورة بالعدل الذي يكملها ويتمها..

والتقابل بين "الدين" مفهوماً عاماً وبين "الدين" في "يوم الدين" حتمي وبدهي: فالدين هو تلك الرؤية للحياة، وطريقة الحكم على الأشياء وقياسها وتقويمها، "يوم الدين" هو اليوم الذي يتضح فيه، بلا أدنى مجال للشك، أن تلك الرؤية هي الحق، ولا شيء بعد الحق، غير الضلال..

* * *

عليّ هنا أن أشير، إلى أن التعريف الثلاثي بالله عز

وجل، في سورة الفاتحة، لم يحتو على أي وصف يمكن أن يثير مشاعر الخوف، على أهمية هذه المشاعر أحياناً كرادع، ووجودها بوفرة في سياقات أخرى في القرآن الكريم، لكن "مالك يوم الدين" ليست ضمنها على الإطلاق، يشبه الأمر، في النهاية، تحديد موعد لتأدية امتحان مهم، وإخبارك في الوقت نفسه، أن النتائج ستعلن في "وقت معلوم"..

ماذا كنت تتوقع إذن؟..

أن تؤجل النتائج، إلى أبد الآبدين؟..

أهمية فهمنا لمالك يوم الدين

ماذا يترسخ لدينا في رؤيتنا مما فهمناه من "مالك يوم الدين"؟..

هناك أولاً، أهمية عنصر الوقت، واعتباره أثمن من أي شيء آخر، باعتبار كل وحدة زمنية فيه، يمكن أن تساهم في جعل العالم أفضل، لو أحسن استثمارها واستخدامها.. كل حبة رمل يمكن أن تصير منجماً للخصب، كل قطرة ماء يمكن أن تساهم في العطاء، في توليد الطاقة. كما أن حبة الرمل يمكن أن تكون مجرد حبة رمل، وأن تذهب قطرة الماء هباء، لكن الالتحام بمفهوم القيمة العليا للزمن، سيجعلك تحطم الأبعاد التقليدية وتقتحم ذلك البعد الرابع، فيكون منجزك وإنجازك، على صعيد الأبعاد الثلاثة المادية، أكثر تحدياً لعوامل الزمن، وأكثر قدرة على البقاء..

عندما تلتحم بتقويمك هذا للزمن، فإنك تصير أقل قدرة على تضييع الوقت، وأقل قدرة على "قتل الوقت".. ذلك أنك تفهم الآن أنك مستخلف فيه وعليه، وإن استخلافك هذا، سيجعل الحياة أفضل، بينما قتل الوقت، في اللا شيء، سيقتل الحياة نفسها..

* * *

الأمر الثاني، مما نفهمه من "مالك يوم الدين" هو أن رؤيتنا ستضعنا في إطار ذلك الصراع القديم بين آدم وإبليس، وهو صراع قديم - جديد بهذا الإطار، وهو لا يخص آدم فقط بل النوع الإنساني كله، كل فرد فيه عليه أن يثبت أنه مؤهل فعلاً للاستخلاف، وأنه يستحق أن ينال الشرف الذي منحه الله له: شرف سجود الملائكة للنوع الإنساني..

* * *

الأمر الثالث، هو أن مما نفهمه من "مالك يوم الدين" سيذكرنا أن الدين، هو مفهوم أوسع بكثير من شعائر وطقوس منفصلة عن الحياة، بل إنه مفهوم واسع للحياة، وسيلة لقياس الأمور وتقويمها ضمن هذا المفهوم..

ارتباط اللفظين "اليوم" و "الدين" في مركب واحد، سيعطيك أيضاً ذلك الإيحاء بأن يكون يومك (أي حياتك كلها..) مصبوباً في إطار تلك الرؤية الشاملة متعددة الآفاق للحياة..

لن يكون يومك يوماً، ولا حياتك حياة، إن لم يكن للدين، بهذا المعنى الواسع للدين..

الفصل الرابع

محور مثالي لأهم علاقة في حياتك

بعد أن أثبتت الفاتحة طبيعة التوصيف الوظيفي للإنسان، وحددت الموقف الإيجابي تجاه العالم، ورسمت الخطوط العامة للتعريف بالله عز وجل، فإنها ستنتقل إلى محور أساسي في الفاتحة ومحور أساسي في حياتنا أيضاً.. في علاقتنا به عز وجل.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ١/٥]..

* * *

يشير تقديم "الضمير" على الفعل وهو أسلوب من أساليب التوكيد، إلى أن الفعل نفسه، سيحصل بكل الأحوال، العبادة والاستعانة، سواء لله، أم لسواه، وتقديم الضمير الذي يشير إلى الله عز وجل على الفعل، يقدم ربطاً مستحكماً لهذا الفعل بالله عز و جل حصراً..

لكن ما معنى أن الفعل نفسه سيحصل بكل الأحوال؟..

ثمة بشر لا يعبدون، ولا يتعبدون ملاحدة.. لا دينيون..

أو فقط كسالى لا يطبقون العبادة.. فكيف نقول إن الفعل سيحصل بكل الأحوال؟؟..

فلنتأمل الآن، مجدداً، في الفعل "عَبَدَ"..

* * *

مرّ بنا، أن الفعل عبَدَ، الذي يفيد التذلل والخضوع، يفيد أيضاً معنى الطريق الذي يعبد بإقدام الناس.. ووجدنا أن المعنى الأعمق هنا هو "إعادة التشكيل" التي تكون، بحسب هذا المفهوم، أن تتشكل كما يريد معبودك..

هذا هو جوهر العبادة.. أن تكون كما يريدك معبودك أن تكون.. وأينما يريد أن تكون..

لا يتعلق الأمر بالتواجد في شعائر معينة وأوقات معينة فحسب، إنه أن تتشكل كما يريد، ولأن عملية التشكل هذه لا تنتهي عند عمر معين، ولا تقف عند حد معين - بل هي تستمر دوماً.. تتشكل دوماً..

القوالب وإنسان الطين

... خلق الإنسان من طين..

والطين مادة مطواعة، تستطيع أن تشكلها كما تريد.. تأخذ شكل القالب الذي تصبها فيه.. القالب بمثابة الإطار العام للطين..

كذلك الشخصية الإنسانية، رغم وجود مؤهلات فطرية فيها.. إلا أنها كذلك تشترك مع الطين في طواعيتها ومرونتها، صحيح أن هذهِ الطواعية والمرونة تقل مع تقدم

العمر، إلا أنه من الثابت أن الشخصية الإنسانية (تتقولب) بشكل القالب الذي توضع فيه، خاصة في مرحلة الطفولة..

وتقدم البيئات المختلفة قوالب مختلفة، ربما القوالب المتشابهة لا تنتج أشخاصاً متشابهين بالضبط؛ لأن (الطينة) المحتواة قد تختلف أصلاً، لكنه من المؤكد أن التوائم المتطابقة، لو وضعت في قوالب مختلفة، لأنتجت أشخاصاً متشابهي الشكل مختلفي المضمون..

و (القوالب) هنا ، قد تكون عادات أو تقاليد اجتماعية ، أو ثقافة معينة ، أو حضارة معينة.. أو ديناً بعينه.. إنه قالب معين ، نتشكل من خلاله..

* * *

الطين إذن، والقوالب..

التشكل، والتعبد.. فلنسجل هذا، ونتذكره..

* * *

بهذا المعنى الواسع، فإن تكوّن الشخصية ، ونموها ، ونضوجها ، كله ، هو في حقيقته ، نوع من أنواع التعبد، بل هو التعبد في جوهره..لا أقول هنا إنه تعبد لله..لأن العبادة يوجهها بعضهم لغير مستحقها.. لكن نمو الشخصية و تشكلها يدخل حتماً بهذا المعنى ضمن التعبد..

[والصلاة، كما نفهمها - هي أهم هذه العبادات؛ لأنها فعلاً الأداة الأكثر فعالية لإنماء الشخصية وإعادة تشكيلها]..

وتشكل الشخصية، عملية تحصل بكل الأحوال، إنه "فعل" يجري سواء أدركت ذلك، أم لم تدركه، ذلك أن إدراكك نفسه مبني ومتضمن داخل عملية التشكل هذه..

التشكل عملية تلقائية، تحصل دونما ضجيج، ودونما إشعار مسبق أن ذلك يحدث..

مثل الشهيق والزفير، التشكل يحدث بكل الأحوال..

فلنسجل هذا... ولنتذكره أيضاً..

* * *

والتشكل هذا، لا يجري بشكل واعٍ غالباً.. بل هو غالباً ما يكون لا إرادياً.. يضعنا المجتمع في قوالب، ننمو ونتشكل من خلالها..

لا ينفي هذا أبداً وجود الإرادة عند الإنسان، التي يستطيع عبرها أن يكسر قالباً ما تم وضعه فيه.. ويخرج من إطاره..

لكن هذا، لنعترف، أقل وأندر..

التشكل كعملية حتمية

نحن عموماً في حالة تشكل مستمرة، تختلف وتيرتها مع اختلاف العمر، وتتباطأ بحدة مع تقدمه، لكنه لا يتوقف تماماً..

وجود الإرادة والوعي يمكن أن يقلب عملية تشكل معينة، أو يزيد وتيرتها، أو حتى يبدل القالب الذي تتشكل من خلاله..

وعملية التشكل هذه، تتم عبر قوالب توفرها البيئة والمجتمع والثقافة والإعلام، قد تكون قوالب عالمية تتخطى الحدود والقارات، وتنتمي لحضارة كاسحة منتصرة، وقد تكون قوالب محلية محدودة بمكان وإقليم.. وقد تكون إيديولوجية معينة.. أو مذهباً دينياً معيناً.. أو فلسفة معينة.. اختارها شخص ما، ولو لم يكن لها أثر في بيئته الأولى..

وقد تكون قوالب قسر عليها.. ولم يدرك حتى أنه أقسر عليها..

هذا التشكل، وآلياته، هو في حقيقته جوهر "العبادة" - إذا عدنا إلى جذرها اللغوي - حتى لو لم يكن هناك شعائر وطقوس بالمعنى المتعارف عليه..

فلنسجل هذا كله، ولنقرأ الآن للمرة الأولى، بعد كل ما كان: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾..

أصب نفسي في القالب الذي تحدده أنت..

ما دام لا مفر من القوالب، ما دمت أتشكل بطريقة ما عبر القوالب المحيطة بي، فإني لن أجد نفسي إلا في القالب الذي حددته أنت لي..

إذا غفلت عن ذلك، فإن العملية ستجري بكل الأحوال، سأجد نفسي في قالبٍ ما، ربما قالب يحدده لي المجتمع، ربما قالب يحدده لي الإعلام،... ربما قالب ثبت عليه في طفولتي.

لكني لن أجد نفسي حقاً، إلا في قالب وضعه لي ذاك الذي خلقني..

ما دام التشكل حتماً محتماً، فإني لا أملك إلا أن أختار أن أتشكل كما يريدني من خلقني..

ما دام التشكل، عبر قالب ما، هو ما يجري في كل لحظة، فإني أستبق ذلك، أستبق الفعل.. وأحددك أنت، يا رب العالمين، لكي أتشكل كما تريد..

هذا هو، إياك نعبد.و هناك المزيد!.

وجه في المرآة...

الفعل (عَبَد) ليس جذراً للعبادة فقط، لكن يشتق منه أيضاً أحد أهم أسماء الإنسان، وأكثرها التصاقاً بحقيقته الداخلية..

أسماء الإنسان وألقابه، تشتق من معانٍ تخص كيانه، وحقيقته، واسم "الإنسان" مثلا، مشتق من حاجته إلى الأنس، من كونه كائناً اجتماعياً بطبعه، لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن بقية جنسه، ووجوده كان دوماً مرتبطاً بوجود المجتمع من حوله..

تلك الحاجة إلى الأنس، المنعكسة في اسم الإنسان، حاجة أصيلة وعميقة، وتعبر فعلاً عن حقيقة "إنسانية".

لكن هناك اسم آخر له، للإنسان نفسه، يعبر عن حقيقة أكثر عمقاً، وأكثر التصاقاً به..

إنه اسم قد لا يعجب البعض.. وقد يشمئز منه

البعض.. قد يرفع البعض أنفه تكبراً - وقد يثير غضب البعض..

لكن هذا لن ينفي حقيقة أنه اسمك.. كما أنه اسمهم جميعاً، لا شيء - تفعله - سيغير ذلك، لا يمكنك حتى أن ترفع دعوى لتغييره في المحكمة.

لا يمكنك أن تهرب منه.. كما لا يمكنك أن تهرب من ظلك.. بل أكثر، كما لا يمكنك أن تهرب من انعكاس وجهك في المرآة..

أي اسم هذا؟..

رغماً عن أنفِ أنفك..

العبد!

الإنسان: عبد بالتعريف

العبد؟..

نعم.. العبد.. حتى لو لم يعجبك ذلك.. لكن حقيقة أنك "العبد" لن تبارحك حتى لو حاولت ذلك.. ربما انعكاسك في المرآة لا يوحي لك بالصورة التقليدية للعبد الأسود بشفاه غليظة وشعر أجعد، لكن من قال إن هذه الصورة الحصرية هي صورة العبد..؟

كل ألوان طيف النوع البشري، كل تدرجاته في البشرة والعيون والحجم.. كلها ترسم صورة هذا العبد..

الإنسان؛ أبيض البشرة أشقر الشعر، أسمر اللون أسود الشعر، هو العبد بالمطلق..

وحقيقة عبوديته، هي أكثر التصاقاً به، من جلده وأظافره..

عبودية عموماً

لا أقصد هنا عبودية الإنسان لله تعالى..

بل أقصد العبودية عموماً.. فالعبودية لله، هي مرحلة معينة من العبودية وهي المرحلة الأرقى، والأكثر تطوراً.. والأكثر قرباً والتصاقاً بحقيقة الأشياء..

العبودية لله، هي ربط العبودية الكامنة في داخلك باستحقاقها الأصلي، إذ إن أدوات "العبودية" ستجعلك دوماً عبداً لشيء ما، سواء أدركت ذلك أم لم تدركه، سواء اعترفت بذلك أم أنكرته، فإنك عبد دوماً لشيء ما..

أنت دوماً عبد لهذا الشيء، أو لذاك..

* * *

كما أن "الإنسان" سمي بذلك لحاجته للاجتماع بالآخرين وكسر عزلته، فإنه سمي أيضاً بالعبد لأنه يحتاج إلى أن يكون (خاضعاً) لشيء ما؛ أي أن يكون عبداً لشيء ما..

هذا الشيء ليس بالضرورة تمثالاً ضخماً في وسط الهيكل أو في الساحة العامة، أو أيقونة معلقة في صدر البيت، إنه قد يتخذ أشكالاً وأنماطاً متعددة..

لكن "العبودية" في الداخل تظل نفسها، تتعدد أشكال ارتباطاتها ومظاهرها، ولكن جوهرها، وهو الحاجة إلى الخضوع يظل واحداً، ويظل هو السبب الرئيسي في الارتباط بتلك الأشكال المختلفة..

فمنذ أن كان هناك إنسان، كان هناك دوماً الخضوع لشيء ما..

الخضوع لسلطة مجتمع، ممثلاً في العشيرة غير المستقرة - الراحلة - مرة، وممثلاً في سلطة العشيرة المستقرة مرة أخرى؛ رئيسها وتقاليدها وأعرافها، أو في رئيس القرية، أو في سلطة أكثر تعقيداً، بمملكة أو إمارة أو بنظام شمولي..

الأمر أعقد وأعمق من أن يكون الحاجة التنظيمية إلى القانون وسلطته.. إنه الحاجة العميقة الموجودة في عمق هذا المخلوق إلى الخضوع لفكرة أعلى؛ قد تتمثل في الدين، بأشكاله المختلفة، وقد تتمثل في فلسفة إنسانية، أو في إيديولوجية..

وتتمظهر هذه الفكرة - التي يخضع لها الإنسان - في مظاهر متعددة: مرة بشكل طقوس وشعائر توجه للمعبود الذي قد يكون الرعد أو البرق أو النار أو البقرة أو وثناً لرجل صالح، قد يكون في الخضوع لعادات وتقاليد تمثل كيان هذا المجتمع وهويته ورؤيته في الحياة..

وقد يكون في الخضوع لرجل ما، لشخصية زعامية تمكنت من أن تتماهى مع أمتها ومجتمعها، سواء كان هذا التماهي مصطنعاً عبر آليات الإعلام وغسل الدماغ، أم عبر تعبيره فعلاً عن إرادة هذه الأمة..

وقد يكون في الخضوع لنمط معين من الحياة، لطريقة

معينة في الحياة، في حقيقتها، تستبدل خضوعاً بآخر، أغلاله ربما غير مرئية، لكن هذا لا ينفي وجودها..

ليس هناك حرية إذن؟.. ليس هناك إلا الخضوع؟..

واستعدادنا للخضوع هو أكبر وأعمق، من قابليتنا للحرية..؟؟

الأمر ليس بهذه البساطة.. فالحرية تطرح حالياً بطريقة تجعلها لا تقبل النقاش، وأي تشكيك بالحرية، سيقابل بطريقة أشد مما يقابل به التشكيك بوجود الله عز وجل..

ففي عصرنا اليوم، يمكن لمن هبّ ودبّ أن يشكك بوجود الله ويعتبر ما يتقوله "حرية رأي"، أما أن تشكك بالحرية فهذا مرفوض تماماً..

وهذا يشوش جداً على كل شيء: بالذات على كون الإنسان مجبولاً على العبودية..

كيف وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟.

عبودية الذات

بعبارة أخرى: ماذا نسمي من يتمرد على كل القوانين والأعراف في مجتمعه.. ولا يطبق إلا ما يريده (هو) وما يراه (هو)، وما يشتهيه (هو)؟ نسميه ببساطة عبداً لذاته.. عبداً لشهواته.. عبداً لرغباته وميوله.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٣]..

أليس من اتخذ أهواءه الفردية إلهاً معبوداً بالخضوع والطاعة هو "عبدٌ" أيضاً، لكنه أبدل عبودية بأخرى، فبدلاً من أن يخضع لقوانين المجتمع حوله، سنَّ قوانينه بنفسه، واتخذ إلهه هواه..

إنها عبودية مكان أخرى..

"الحرية الشخصية": عبودية... من بين العبوديات

ماذا عن "الحرية الشخصية" التي صارت قدس الأقداس في الحياة المعاصرة؟.. وصارت معياراً للتقدم والتطور في أنحاء العالم الحديث؟..

إنها عبودية مزدوجة: تضم عبوديتين في آن واحد..

العبودية الأولى هي العبودية لذلك الإله الفردي، القابع في غرائز وميول ونزعات كل منا، إله الهوى.. الحرية الفردية في جوهرها قائمة على تأليه الهوى و تقديسه، على تنصيبه إلهاً بلا منازع.. كل نظريات الفلسفة الفردية - لو جردت من تفلسفها وتنظيرها - هي فقط تطوير لفظي لتأليه الفرد لهواه.. لذلك الذي اتخذ إلهه هواه..

كل ما في الأمر أن الأمر صور وسوّق على أنه صواب.. بل على أنه الصواب المطلق..

* * *

والعبودية الثانية هي تحويل نمط الحياة المرتبط بالفردية إلى نمط حياة لا يقبل النقاش أو الاستبدال..

نمط حياة يمجد "الحرية الفردية" ويقول لكل فرد إن حريته الفردية هي أغلى قيمة، لكنه، كتحصيل حاصل، ينتج مجاميع من أفراد متشابهين جداً، أفراد يؤمنون تماماً أنهم أحرار، ولكنهم لا يرون الأغلال التي تشدهم من أيديهم وأرجلهم: أغلال تجعل من حريتهم مقصورة على حياة هي "حياة دنيا" بكل المقاييس: حياة ببعد واحد، حياة "الآن و هنا." حياة التمتع بأكثر ما هو عابر عبوراً وسطحية، حياة هي السطح الظاهر بلا أي عمق، بلا أي بعد، بلا أي ارتفاع..

حياة تختصر فيها الحرية إلى حرية اختيارك بين مشروب غازي وآخر.. وبسعرات معينة وآخر بسعرات أقل. حرية تختصر باختيارك لقناة من بين مئة قناة تبث التفاهة طول الوقت. حرية تختصر بأن تختار بين مرشحين لا فارق حقيقي بينهما إلا باختلاف الشركة الممولة وأن تصوت لفلمك المفضل.. أو نجمك المفضل..

حرية هي في جوهرها أقسى عبودية مرت على البشرية.. أغلال روما وخوازيق السلاطين وقيود القياصرة ما أوهمت الناس يوماً أنهم أحرار.. أما أغلال "الحرية الشخصية" فهي غير مرئية وتتغلغل داخل رؤوس الناس، تبرمج لهم حياتهم خياراتهم وأدوارهم، تقول لهم أن لا شيء ثمة غير هذه الأبعاد المادية، ولا حرية ثمة غير الاختيار مما هو متاح من هذه الأبعاد، هذه السلعة أو تلك، هذا المرشح أو ذاك، بطاقة الاعتماد هذه أو تلك، قضاء الإجازة في ذلك البلد أو تلك الجزيرة، الذهاب إليها بتلك

السيارة أو بالخطوط الجوية، بالدرجة السياحية أو بدرجة رجال الأعمال..

كل ما هو أنت سيتبرمج، عبر وسائل الإعلام، ليتخذ مجموعة من القرارات من هذا النوع، بطريقة تخضعك وتخضع رأسك لعملية غسيل دماغ هي في حقيقتها إعادة تركيب، بحيث يصير كل أفقك محصوراً بهذه الخيارات على سطحيتها وسخافتها، خيارات تداعب غرائزك الفطرية، وتجعل حياتك متمحورة حولها، وخيارات أخرى تفرز فيك "ميولاً" ما كانت فيك، على الأقل لم تولد لها، لكن آلة الإعلام الأخطبوطية تغرزها فيك بالتدريج حتى تصير "ميولك" فعلاً بالحث والتدريب.. وبين هذا وذاك ستتقزم اهتماماتك ورغباتك وطموحاتك لتكون في النهاية: خياراً حول ماذا سترتدي، وماذا ستشرب، وأين ستسهر، ومن ستضاجع الليلة؟..

إنها أقسى عبودية عرفها التاريخ: لأن العبيد فيها خاضعون دون أن يدركوا مقدار خضوعهم.. لأن العبيد فيها، أكثر من أي وقت مضى، لا يدركون مدى عبوديتهم.. وتقنعهم وسائل الإعلام حولهم بأنهم في منتهى الحرية.. تقول لهم أن يختاروا تصميم الثياب الذي يعبر عن "ذواتهم ".. رغم أنه لم يبق شيء اسمه ذات أصلاً..

حرية واحدة فقط في حياتك..

لكن هذا لا ينفي وجود حرية في حياتنا..

حرية واحدة فقط..

لكنها الحرية الحقيقية... الحرية العميقة التي لا علاقة لها بحيرتك في اختيار سلعة من بين السلع على الرف أو في المشجب وما يسمى بحريتك في اتخاذ هذا القرار المصيري..

إنها الحرية الإنسانية بمعناها الشامل، بمعناها العميق الذي لا علاقة له بالحرية التي ابتذلت وتقزمت لتصير ما نسميه اليوم "الحرية الشخصية"..

إنها الحرية - الامتحان..

الحرية التي نولد بها من أرحام أمهاتنا، ونحملها على ظهورنا معنا أينما ذهبنا..

أي حرية تلك..؟

إنها حرية اختيارنا لعبوديتنا، بين كل العبوديات التي تمر بنا ونمر بها..

إنها حرية أن تختار لمن تكون عبداً..

لذاتك، لشهواتك، لنمط حياة استورد من هناك، لنمط حياة آخر استوطن هنا، لإيديولوجية من هنا أو إيديولوجية من هناك..

أو لذاك الذي خلقك - وخلق كل ما، وكل من، حولك.. هذه هي حرية الاختيار الحقيقية الوحيدة الموجودة في هذا العالم..

ولعلها تكون أهم قضية في حياتك..

ويكون الباقي مجرد تفاصيل..

اختيار القالب الصحيح الذي خلق من أجلك، يختلف عن قسر نفسك داخل قالب يحاول أن يجعلك تتشكل حسب مقاساته، مثل قوالب الأقدام الصغيرة التي كانت توضع داخلها أقدام الفتيات الصينيات لمنعها من النمو وقسرها على التلاؤم مع مقاييس الجمال السائدة هناك..

الوظيفة نفسها تؤديها كل القوالب الاجتماعية السائدة اليوم والتي تروج عبر وسائل الإعلام، إنها تقسرك على أن توقف نموك حسب مقاسها، وأن تتشكل حسب مقاساتها ومقاييسها، وتخبرك أن هذا هو حدك الأقصى، ولا تنتبه إلى قالب آخر، صنعه من صنعك، وخلقه من خلقك، فكانت مقاساته تناسب إمكاناتك حقاً، وآفاقه تناسب أبعادك الكامنة حقاً..

ولكن، ولأنهم أخبروك أنها الأفضل وزوقوها لك، فإنك تحاول أن تقسر نفسك داخل قالب "فتى الإعلام"، بأسنانه البيضاء الملمّعة، أو "فتاة الإعلان" بتسريحة شعرها الذي سيبدو كالحرير على الشاشة، أو "رجل الأعمال" الذي يبدو في منتهى السعادة وهو يهبط من سيارته الفخمة ليوقع عقداً ما، دون أن تبدو كآبة حياته وخواؤها..

و.. كيف تترك ذلك القالب الآخر، قالب القامة العملاقة، قالب الخليفة على الأرض.. من أجل كل ما يعرضون عليك..

لذا أختار قالبك، يا رب العالمين، أصب نفسي فيه..

لا مفر من أن أكون عبداً.. خاضعاً لشيء ما..

لذا أختار عبوديتي لك؛ لأن فيها وحدها أستطيع أن أتحرر من كل العبوديات الأخرى..

عبوديتي لك، هي حريتي الوحيدة الممكنة..حريتي الوحيدة التي هي حرية حقيقية..

لذا...

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ١/٥]..



الفصل الخامس

العون من صاحب العون

ثم إننا بعد أن نحدد لمن سنكون عبيداً، نحدد أيضاً بمن سنستعين..

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾..

* * *

العون، في لسان العرب: هو الظهير.. إنه من يكون ظهيراً لك على فعل ما تقوم أنت بالأساس بأدائه..

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٥/٤].

ففي هذه الآية نرى أن التهمة كانت موجهة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، على أنه هو من افترى الوحي - ولكن التهمة أيضاً، وجهت إلى "آخرين" على أنهم أعانوه في الأمر.. - أنهم كانوا ظهيراً له..

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾ [الكهف: ١٨/٩٥]..

فالعمل الأساسي هنا كان يقوم به ذو القرنين، لكنه طلب

من الآخرين أن يساعدوه في الأمر.. أن يكونوا له الظهير..

وهكذا كانت العرب تقول إذا جاءت السنة جاء معها أعوانها.. يعنون بالسنة: الجدب، وبأعوانها: الجراد والذئاب والأمراض..

وهكذا فإن "العون" عندما يأتي، وعندما يطلب قبلها، فإنه يكون نتيجة لوجود "عامل" حقيقي، لوجود فعل يفعل له فاعل ما ، لكن الفاعل، من أجل إتمام فعله، يحتاج إلى الظهير فيه..

هناك إذن فعل فاعل.. وهناك طلب لإسناد، لظهير ..

الفاعل يطلب العون

طلب الاستعانة يعني، بالتعريف، وبشكل متوازٍ مع الطلب، أننا نقوم بشيء ما ، أن هناك "فعلاً ما" نقوم به، فعلاً يحتاج إتمامه إلى ظهير وإسناد..

إننا، دون شك، حسب هذا النص في هذه السورة المركزية، نحن من يقوم بالفعل.. موقعنا من الاعراب لا يمكن أن يجادل فيه.. لا يمكن أن يتغير إلا إذا نكصنا..

في هذه الأرض، موقعنا الأساسي من الإعراب، هو الفاعل.. وفعلنا للفعل، يحتاج حتماً، إلى ظهير..

وها نحن نطلبه..

* * *

وما الذي نفعله، ما هو هذا الفعل الذي نؤديه والذي نطلب منه عز وجل أن يقدم لنا الاسناد والعون فيه؟..

هل هو أي فعل بالمطلق؟.. هل هو مجرد أفعال نفعلها كيفما كان، كيفما اتفق، دونما هدف، دونما بوصلة؟..

هل هو الفعل المرادف للبطالة؟.. هل هو الفعل المرادف للا شيء؟.. هل يمكن أن نعدّ الانتظار فِعلاً نطلب العون عليه؟.. هل يمكن أن نعدّ قتل الوقت، وما نفعله فيما نسميه "وقت الفراغ" فعلاً يمكن أن نطلب العون عليه؟..

* * *

عندما يكلفك شخص ما بعمل ما، بمهمة خاصة، وتذهب لأدائها، فإنه لا غرابة أن تطلب العون والإسناد منه عندما تحتاج العون في أداء هذه المهمة..

لكن، لن يكون من الحصافة - ولا حتى من التهذيب - في شيء أن تطلب العون والإسناد، ممن كلفك بعمل، على عمل لم يكلفك به..

كلفك بشيء معين ثم تتصل به لتخبره أنك بحاجة لإسناده ودعمه في عمل آخر لم يكلفك به..

أين ما كلفك به إذن؟.. لم انشغلت عنه بعمل آخر، ثم جئت تطلب العون منه؟..

لا.. لن يكون ذلك حصيفاً ولا مهذباً..

والأجدى أن تقصر طلب العون، على ما كلفك به هذا الشخص..

* * *

..بلا تشبيه، فالله عز وجل ليس كمثله شيء..

لكنه أيضاً كلفنا بمهمة.. وأيضاً انشغلنا عنها بأعمال أخرى، ذات اليمين وذات الشمال..

وبعد هذا، يأتي في بالنا، عندما نواجه صعوبات هنا أو هناك، أن نطلب منه العون..

أين ما كلفتكم به أصلاً؟..

ما الذي أنجزتموه من الفرض الأساسي؟.. ما الذي أنجزتموه من نصيبكم من الخلافة في الأرض؟..

عندما نطلب العون، علينا أن نتقبل أسئلةً كهذه..

من قال إن الخليفة هو رأس الدولة؟

ما نصيبنا من الخلافة في الأرض؟..

وضعنا تلك الكلمة في إطار معين، وضعنا الإطار في صندوق مغلق، وضعنا الصندوق المغلق في برج عالٍ.. وبنينا حولها الأسوار والحواجز، وزرعنا الألغام حول الأسوار والحواجز.. ثم وقفنا ننظر متحسرين ونحن نتمتم بأسف: الخلافة!..

لقد وضعنا الكلمة في سياق حصري وضيق جداً، وملأنا الطريق إلى هذا السياق بالعقبات والعراقيل، لنقنع أنفسنا أن لا فائدة من المحاولة، ولا جدوى حتى من تأنيب الضمير..

من قال إن الخليفة في الأرض له صورة واحدة تتراوح بين سليمان وداوود وذي القرنين وعمر؟..

من قال إن الخليفة هو رأس الدولة حصراً؟.. من قال إنه من يتربع هناك؛ سواء كان قد وصل برضى الناس أم بسخطهم، بالتوريث أم عبر صندوق انتخابات يساق الناس إليه وأدمغتهم مغسولة عبر الإعلام، بعمامة كبيرة، أو بتسريحة حديثة؟

الخليفة في الأرض، قد يكون، رأس الدولة، لكن ذلك لا علاقة له بمنصبه هناك، وإنما بما يفعله هناك، بالقيم التي تتحكم فيه بينما هو هناك، هل هو ملتصق بقيم الاستخلاف؟.. هل هو واعٍ مهمته في الأرض؟.. هل يؤدي ما يؤديه وقد وضع هذا نصب عينيه، قبل منصبه؟..

ما دام الأمر لا يتعلق بالموقع الوظيفي بقدر ما له علاقة بفهم التوصيف الوظيفي الذي عيننا على أساسه، فإن أداءك لدور الخليفة على الأرض لن يلتزم بموقع رأس الدولة إلا كتحصيل حاصل، بعبارة أخرى: إن بائعة اللبن، التي رفضت مزج اللبن بالماء، وسمعها الخليفة عمر، في الحادثة المعروفة، كانت هي أيضاً تمارس الاستخلاف في الأرض.. رغم أن (وظيفتها) كانت مجرد بائعة لبن..

الاستخلاف يسكن كل المهام، بشرط أن تؤدي معنى الاستخلاف فيها، ما دامت تؤدى وهدف إحقاق الحق وإقامة العدل منتصب أمام عين من يؤدي هذه المهمة..

الاستخلاف هو أن تؤدي ما تؤديه، بينما تتوقد تلك الروح التي نفخها الله عز وجل في داخلك؛ قد تكون في دور (أم) تربي أبناءها تربية تجعل منهم فاعلين - الفعل

الصواب - وإيجابيين تجاه عالم يحتاجهم ليكون على صواب..

قد يكون في (أب) يعيل أولاده، ولكن إعالته لهم لا تقتصر على الخبز و البيض وأدوات المدرسة، بل في أن يكون ذلك الأب الذي يمد بالقيم وبقوة القيم والتوازن في عالم يحتاج إلى ذلك..

إنه ليس أن تكون أباً جيداً أو صاحب معمل جيداً أو مصرفياً جيداً.. بل أن تكون - إلى جانب الجودة - واعياً لدورك في الاستخلاف ..أن يكون توصيفك الوظيفي الأساسي داخلاً في تفاصيل وظيفتك اللاحقة.. إنه أن تتذكر ذلك كله، وأن يدخل في فهمك لما تقوم به.. متحداً مع فعلك الذي تفعل..

أي شيء دون هذا الفهم، دون وجود روح الله في عملك، سيجعلك مجرد طبيب جيد أو مهندس جيد، ويمكن لأي منتمٍ لدين آخر لا يضم هذه المعاني أن يكون ذلك، بل يمكن لأي ملحد أو لاديني أن يكون ذلك..

لكن الأمر هنا مختلف - إنه ليس "عمل الصالحات" فحسب، بل فعل الصالحات ضمن الإطار الشامل للتوصيف الوظيفي الأساسي، أن تؤدي ما تؤديه وأنت مؤمن بدورك ومؤمن بالذي كلفك بهذا الدور، بشكل يصب "الصالحات" في سياق إطارها... في سياق نيتك، وفي سياق تكليفك..

ولذلك فقد كان الربط الدائم في القرآن الكريم بين

الإيمان والعمل والصالح.. إذ لا معنى لعمل صالح، ما لم تكن مؤمناً أنك مكلف به.. لا معنى لعمل صالح ما لم يكن في الإطار الذي تؤمن أنك خلقت من أجله..

شروط المعونة

الأمر الذي يدعو إلى التأمل، وإلى التفكير، أنه على بعد آيات وعلى غير مسافة بعيدة من طلب العون في الفاتحة - يأتي الرد الإلهي، موجهاً ومحدداً موضع طلب العون.. يأتي الرد في سورة البقرة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٣]..

فالطلب الإنساني الذي حدد الله عز وجل مصدراً للعون، سرعان ما سيجاب - إلهياً - في سورة البقرة، مرتين اثنتين، بتوظيف طلب العون هذا، بالبحث عنه، في موضعين اثنين، يتلاحمان هنا.. ليكونا مركباً واحداً: الصبر والصلاة..

* * *

للوهلة الأولى سيبدو الأمر كما لو أنك تدور في حلقة مغلقة..

نطلب العون، في فاتحة الصلاة..

فيأتي الرد بطلب العون من الصلاة نفسها، ومعها الصبر؟..

ما الذي يعنيه هذا؟.. وهو الذي سيبدو أنه ردٌّ لطلب العون أو على الأقل تأجيل له؟..

في الحقيقة إن ارتباط العون هنا بالصبر والصلاة، له علاقة مباشرة بما أسلفناه من ذلك المفهوم العميق للصلاة الذي يجعل منها دورة تدريبية لإعادة بناء العالم وإعادة تشكيله على أسس أكثر عدلاً وتوازناً.. فالصلاة بما أنها "دورة تدريبية" - فإنها تمدك بالعون الذي تحتاجه، تقويك تكون ظهيراً لك، إنها مثل الدورة التي يحتاجها الرياضي الذي على وشك أن يخوض مسابقة مهمة، هل سيحصل على الإسناد إلا من التدريب والمثابرة عليه؟..

ومفهوم الصبر هنا في هذا السياق له دلالاته المهمة، فنبتة الصبار هي تلك النبتة التي تتحدى الجدب والعطش والموت لتقتنص فرص الحياة وتحقق عبر صمودها أقوى أمثلة الإيجابية..

إنه صبر المثابرة إذن والدأب، وليس صبر الانتظار المرادف لليأس.. إنه صبر العاملين وليس صبر العاطلين عن العمل.. إنه صبر الإصرار وليس صبر الاستسلام..

الصبر والصلاة: استحقاق المعونة

ارتباط الصبر هنا بالصلاة مهم جداً: ذلك أن الصلاة لا تأتي بنتائج سحرية على صعيد الفرد، ومن ثم على صعيد المجتمع، وذلك أصلاً ليس مطلوباً منها - إنها عملية طويلة ومعقدة تحتاج دأباً ومثابرة؛ أي إنها تحتاج صبراً، ومصابرة، وقد مرَّ ذلك عدة مرات في القرآن الكريم:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طـه: ١٣٢/٢٠].. ولا سيما أن عملية إعادة البناء الفردي والمجتمعي، قد تمر أحياناً بانتكاسات، لذا لابد من الصبر - بهذا المفهوم الإيجابي للصبر، وهو الصبر الذي سيجعل الانتكاسات عابرة، ويعبرها نحو ضفة البناء والفوز..

إنها عملية صعبة معقدة طبعاً.. إنها عملية "كبيرة"، وستبدو تقريباً مستحيلة، والنص القرآني يقرر ذلك أيضاً، لكنه يوضح ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥/٢]..

الاستمرار بالأمر- المواصلة فيه - هو الذي يجلب المعونة الإلهية:

ففي الآية الثانية التي تكرر فيها توجيه العون نفسه ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣/٢] يأتي هنا العون والإسناد من الله مباشرة، الذي يمنح معيته وعونه، لمن يكون صابراً..

أي إن العون الإلهي جاء فعلاً وحقاً، لكن ذلك جاء بعد مرور طلب العون بمرحلة معينة تبين فيها جديته وحصل على استحقاقه..

أي إن الله لا يمد العون - هكذا كيفما كان - لمجرد أن أحدهم يطلب العون منه، ويبكي بحرقة بينما يطلب ذلك، لا طبعاً. عليه أولاً أن يجعل (مركَّب) الصبر والصلاة يعينه على الفعل.. وذلك لا يحدث إلا لمن يتفاعل ويثمر، وبعد هذا يأتي العون الإلٰهي ظهيراً للفعل.. مسانداً له.. متخذاً مظاهر وأشكالاً عديدة..

المعونة بين الإفراط والتفريط

وهذا موجه أصلاً، لنموذجين وحالتين موجودتين في مجتمعنا وفهمنا.. بين تفريط وإفراط..

فهناك من ينكص عن الفعل، ويستصعبه، يستهول إمكانية إحداث فرق.. يعدّ كل شيء أقوى منه وأكبر من إمكانياته بطريقة لا يجدي معها أي فعل..فلا يفعل غير أن يطلب المعونة.. دون أن يحاول أداء المستحقات..

وقد حدد القرآن الكريم هذا النموذج: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/٤٥]..

وهذا النموذج خرج من الخاشعين؛ ومن ثم فإن العون لن يأتيه؛ لأن صبره وصلاته لم يعيناه؛ لقد اكتفى بالدعاء، ونكص عن الفعل.. وكان لابد أن يمتنع عنه العون..

* * *

النموذج الثاني وقف على الضفة الثانية المتطرفة، فتصور أن السنن والقوانين يمكن أن تمده بالعون الذي يحتاجه، وهي كذلك فعلاً، لكنه تصور أنه يعرف كل القوانين والسنن، والحقيقة أن هناك قانوناً أشمل، يضم كل قوانين السنن، ويضم أيضاً قانوناً آخرَ، هو قانون العون الإلهي، الذي لا يمنح إلا لمن حاز استحقاق السنن، ولكن بعد أن يطلب العون كذلك، أي بعد أن يقر بحاجته إلى العون، يقر بأن موضعه - كخليفة - سيظل

دوماً في حاجة إلى عون من استخلفه.. إنه الإقرار، بأنه مع كل القوة الكامنة، في إمكانات الإنسان الخليفة، فإنه سيظل بحاجة إلى العون الإلهي..

سيظل بحاجة إلى أن يطلب العون منه عز وجل، أن يستعين به..

إنكار ذلك سيعكس ملامح الانهيار والضعف الكامنين، رغم مظاهر جبروت القوة، إذ إنه سيعني التمادي الصلف، وتجاهل الحاجة إلى إعادة النظر.. العون، بالذات طلب العون، سيعكس استسلاماً شجاعاً لحقيقة الأشياء: حقيقة موقعنا من الأشياء، وموقع الأشياء منا، وموقعنا من السياق كله..



الفصل السادس

جدل الهداية والاهتداء

يجري تصوير الهداية غالباً، كما لو كانت ضوءاً ساطعاً - يضيء حياتك مرة واحدة، يرشدك إلى الطريق الصحيح.. وتتغير حياتك بعدها مرة واحدة وإلى الأبد..

لا يمكن انكار أن هذا قد يحدث، لكنه نادر جداً، على الأقل ليس بهذا التبسيط..

الهداية، عندما تحدث، لا تكون بالضرورة هذا الضوء الساطع، لكنها قد تكون مجموعة أضواء، ليس فيها واحدٌ يكون بمثابة هذا الضوء الكاشف الساطع الذي يكون بهذا الحسم والوضوح.. بعضها يكون مثل مصباح صغير تحمله في يدك لتبحث عن الطريق، وبعضها قد يكون مصدراً للضوء - موجود دوماً - لكنه مغطى ومموه.. وعليك أن تزيح عنه تمويهه ليسطع وينبعث..

بعض الهداية قد يكون ضوءاً ساطعاً فعلاً، لكن لا تتخيل أنه وحده هناك، فسيكون هناك أضواء أخرى، بريقها قد يوحي أنها هي "الأضواء" التي تدل إلى الطريق الصحيح"..

بعض الهداية قد يكون ضوءاً واحداً كبيراً ساطعاً ينير حياتك في لحظة ما، لكن ذلك لن يكفي حقاً إن لم تكن هناك سلسلة من الأضواء اللاحقة، ربما ليس بالضرورة أن تكون ساطعة جداً كما الضوء الأول، لكنها تكون كافية لتدلك على الطريق.. لتثبتك عليه..

الهداية ليست عود كبريت، يشتعل ويضيء لمرة واحدة فقط..

إنها ليست خياراً واحداً تقرره وتمضي في حياة صممت على هذا الخيار.. بل هي الضوء تلو الضوء، بل الضوء يبحث عن ضوء، نادراً ما يكون الضوء الذي تجده - أو الذي يجدك - ضوءاً ينير الطريق كله، بل غالباً ما ينير الخطوة التالية فحسب، أو بضع خطوات تالية في أحسن الأحوال.. لا أكثر..

والأمر هو أن تبحث دوماً عن الهداية؛ أي عن الضوء، لأنك في كل خطوة في حياتك ستحتاج إليها..

ولهذا، فإنك، عملياً، ستطلبها سبع عشرة مرة في اليوم.. الحد الأدنى المقبول..

لتقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦/١]..

مجموعة أضواء وعلامات على الطريق

والهداية ليست الضوء بالضرورة.. إنها أحياناً العلامة الموجودة لتدلك على الطريق الصحيح، ولكنك قد تحتاج

إلى ضوء قد يكون ضوء مصباح صغير، ينبعث من داخلك.. وقد تحمله في يدك.. لتراه..

أي إن الهداية قد تكون هذا التفاعل المستمر المتبادل، بين علامة موجودة فعلاً - ويمكن أن يشهدها الجميع - وبين إصرار على رؤيتها، وعلى البحث عنها..

الهداية، ليست بالضرورة ذلك الشيء الذي يهبط من فوق، إنها أحياناً تكون ذلك التمازج بين ما يأتي من فوق، وما يتدفق من تحت، من أعماق الإنسان، من كونه يريد أن يهتدي إلى الطريق، من إرادته للهداية..

علامات الطريق موجودة على الطريق، وهي للجميع.. ومن أجل الجميع.. لكن ليس الجميع يهتدون بها إلى الطريق الصحيح.. بعضهم لا يلتفت إليها.. البعض يضع علاماته هو.. البعض لا يعرف كيف يقرأها. والبعض يقرؤها بشكل معكوس رغم أنها موجودة بوضوح..

* * *

الهداية إذن ليست فعلاً إلهياً يقع بلا سبب على شخص فيهديه الله وينتهي الأمر.. على الأقل ليس دائماً..

إنها أحياناً "استحقاق" نكسبه ونحرزه ونعمل من أجله..

للهداية وجه آخر غير الذي نعرفه، وجه اسمه "الاهتداء"؟؟

الاهتداء: تفاعل انساني مع معطيات الهداية

و "الاهتداء" - بالتعريف - فعل إنساني، يتفاعل - إرادياً - مع كل معطيات الهداية الموجودة أصلاً في العالم من حولنا، "التاء" التي تدخل على الفعل "هدى" تمنح المعنى المشدد الذي يركز على الإنسان وهو يقوم بالفعل..

إنه يجعل الإنسان "فاعلاً" و "متفاعلاً" في الوقت نفسه، مع الطريق من حوله.. مع العلامات التي على الطريق.. إنه يحاول أن "يهتدي"، لذلك فهو يركز على العلامات، ويحاول قراءتها بشكل صحيح..

لذا، فالهداية، تأتي نتيجة لذلك، تأتي استحقاقاً على عمل من اهتدى - بجد - من أجل الفوز به..

ولأن التفكير السلبي يمتلك "قوة" معينة، يستمدها من التكاسل والرغبة والتهرب من مواجهة المسؤولية، فإن مجمل آيات الهداية والاهتداء، قد اختزلت في آية معينة، اجتزئت من سياقها طبعاً، لتوضع في سياق آخر مختلف تماماً، سياق السلب والنكوص عن الفعل وتبرير العجز، وأي آية تقرأ في سياق كهذا، تكون مجتزأة من سياقها كله؛ لأن كل القرآن الكريم، بلا أي استثناء، نزل في سياق النهوض والإيجاب..

الآية المجتزأة من سياقها، والأكثر استخداماً في

موضوع الهداية هي آية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨/٣٥]..

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١/٧٤]..

وهكذا فإن الآية تستخدم أحياناً بطريقة متعسفة تبريراً وتفسيراً لأحوال من يقولها، ولأحوال من حولهم:

(ماذا سنفعل لمن أحواله وطرقه ورحلاته كلها بعيدة تماماً عن الله؟.. ماذا سنفعل لمن تختصر حياته ونمط حياته بأنها بعيدة تماماً عن كل ما يجب أن يكون؟..)

لا نحاول أن نبدل شيئاً من ذلك.. أو نحاول بطريقة إسقاط الفرض فقط، لكي نقول إننا حاولنا: ثم نردف بعدها، مفسرين ومبررين..

إن الله يهدي من يشاء!..

لكن "جبل الهداية" أكبر بكثير من أن يختصر بصخرة واحدة..

الهداية: شروط وموانع

فهم الهداية حقاً، يتطلب فهم مجمل آياتها، وليس انتقاء واحدة لأي نوع من الأسباب..

ولذلك فإن هناك شروطاً قرآنية للهداية، كما أن هناك موانع لها - وبين الشروط والموانع تقع دائرة الاستحقاق الإنساني لحيازة الهداية، ولو عبر تسلق جبل الهداية الصعب الوعر..

هناك قبل ذلك - حجة الله البالغة، التي يمكن أن تغني عن أي دليل هداية آخر، أو علامة إرشاد، أو ضوء ساطع، لأنها موجودة عند جميع البشر، وهي حجة كافية فعلاً، لنحاسب على معرفتنا أو عدم معرفتنا للطريق حتى لو لم يكن هناك علامات إرشاد، ذلك لمن يحسن استخدام هذه الحجة البالغة: إنها الأدوات "العقلية" التي ميز بها الله عز وجل الإنسان وجعله سيد المخلوقات كلها.. والتي تمكنه، نظرياً على الاقل، حتى دون علامات إرشاد، أن يصل إلى الطريق الصحيح..

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٤٩]..

لكن رغم ذلك، ولأن هذه الحجة البالغة يمكن أن يتراكم عليها ما يحيدها، وضع الله كل علامات الإرشاد التي نغض البصر عنها أحياناً..

شرط الهداية الأول..

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩]..

الهدي الإلهي هنا جاء (نتيجة) لذلك الجهاد في الله، والجهاد هو مفهوم واسع لبذل الجهد في كل ما يتعلق بما أمر الله به، ولا يقتصر ذلك أبداً على النطاق الضيق للقتال الذي حصر فيه، وذلك واضح طبعاً من كون السورة مكية، والجهاد وقتها كان جهاد الدعوة، والإصرار والدأب على بناء عالم آخر غير العالم الظالم الذي كان (.. ولا زال؟!..)..

وهذه المجاهدة، بكل المعنى الداخلي الممتلئ زخماً وإصراراً وفاعلية (والتي تكاد تشبه حرباً مع نفسك) هي التي تؤدي إلى أن ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ كما تشير الآية..

وهذه المجاهدة أيضاً، هي جوهر عملية الاهتداء التي يقوم بها الإنسان نفسه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٣٤/٥٠]..

فالاهتداء هنا، هو الفعل الإنساني تجاه الوحي الإلهي (وهو الوحي الموجه إلى عموم الإنسانية).. وهو الاهتداء الذي سيؤدي إلى ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ١٩/٧٦] ..﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ٤٧/١٧]..

فالاهتداء البشري - يؤدي إلى المزيد من الهدى لكنه هذه المرة هدى إلهي.. إنه النور الذي سيتدفق من الثقب الصغير الذي أجهدت نفسك في إحداثه في الحواجز والأسوار من حولك، ربما لم تكن تطمع بأكثر من بقعة ضوء في خضم العتمة.. لكن النور سيتدفق من ذلك الثقب؛ لأن الذين يهتدون بأنفسهم يزيدهم، عز وجل، هدى..

شرط الاهتداء الأول

لكن ما هو هذا الاهتداء؟.. لماذا يهتدي البعض ولا يهتدي البعض الآخر؟.. لماذا يكون هناك (شيء واحد) يهتدي به البعض ويضل به البعض الآخر..

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٦]..

الاهتداء، يعتمد على وجود الرغبة الجادة لشخص ما، أن يصل إلى الحق والحقيقة.. إنه باختصار جاد في ذلك، مستعد لتقبل الحقيقة وإن كانت خارجة عن نمط حياته المعتاد وبيئته المحيطة به..

إنه جاد ومصرّ على ذلك، بحثه عن الحق ليس ترفاً فكرياً يتمتع فيه بنقاش الأفكار وسجالها، تداول الأفكار عنده وتمحيصها ليس لعبة "شطرنج فكرية" تؤدي لغرض قضاء الوقت واستعراض العضلات الدماغية في دحض الأفكار وتفنيدها دون الوصول إلى فكرة حق واحد لا يدحض.. إنه باختصار أن تكون جاداً لتقبل الحق وتقبل نتائج قبولك له على حياتك.. لأن ذلك قضية من أهم قضايا حياتك.. وليس مجرد هواية، كالشطرنج أو جمع الطوابع..

* * *

ويشبه هذا، ذلك التحدي الإبراهيمي الشهير، الذي جمع بين الجدية والإصرار والمجاهدة، في تحديه لكل الحقائق حوله، للوصول إلى الحقيقة الواحدة؛ إنه الإصرار على الحصول على الهداية ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٦/٧٧]..

لم يكن ينتظر الهداية دون أن يقوم بشيء حيال ذلك، لم يكن يطلبها دون أن يسعى لها حثيثاً، لم يكن يطلبها

في دعائه دون أن يستحق الحصول عليها بجهده.. معبود تلو آخر، قام إبراهيم بسبره ورفضه، رغم أنهم كانوا يمثلون أعمدة العالم الذي آمن به قومه - لكنه هدها جميعاً، الواحد تلو الآخر، وهدَّ بذلك العالم القديم.. من أجل أن يهديه ربه، إلى عالم آخر، عالم جديد أكثر عدالة..

ولأنه استحق ذلك، فقد هداه الله حقاً..

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٠]..

موانع للهداية؟

وكما أن للهداية شروطاً، فإن لها موانع، وهي موانع تبطل عملية الاهتداء أصلاً، وتبطل التفاعل بين الهداية الربانية، وبين الاهتداء الذي هو فعل بشري..

وموانع الهداية واضحة وقد بينها القرآن الكريم.. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٦٤].. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل: ١٦/١٠٧]..

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٨]، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/٨٦]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥١]..

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٥/١٠٨]، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩/٢٤]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٦١/٥]..

إذن هناك ثلاثة مرتكزات أساسية لمنع الهداية وهي الكفر، الظلم والفسوق..

والكفر هنا هو بمعناه العام الذي يجعل الإنسان يتخذ موقفاً مسبقاً رافضاً معانداً لله عز وجل بالمطلق، إنه الموقف الجاحد الذي لا يرى أي هامش للتواصل مع الإيمان بالله عز وجل، ومن ثم للرضوخ له..

أما الظلم فهو يمنع عملية الاهتداء لأن الاهتداء بالتعريف يتطلب أن تتخلص من الظلم الذي في داخلك تجاه أي شيء، سواء كان ظلماً للآخرين أم لنفسك، أم للأمور بصورة عامة. فالظلم يجعل المقاييس غير متوازنة، يعلمك الانحياز دوماً لجهة ما دون وجه حق، وهذا يتنافى فوراً مع آلية الاهتداء التي تتطلب قدراً من النزاهة يجعلك تتحمل نتائج ما وصلت إليه..

والفسوق يمنع عملية الاهتداء أيضاً لأنه ببساطة يجعلك عازفاً عنها وعن كل ما هو جدي ونافع حقاً، إنه يربطك بمجموعة غرائز ومتع صغيرة ويجعلها محور عالمك وحياتك، بعيداً عن كل ما يتطلبه الاهتداء من جدية والتزام ودأب..

وهكذا نرى، أن الله لا يهدي هذه الأصناف الثلاثة، ما كانت هذه المقومات لديهم، زوال هذه المقومات، لسبب أو لآخر، سيرفع هذا المنع - ولكن الهداية ستكون مرتبطة أيضاً بعملية الاهتداء بذلك الفعل الإنساني الذي يتفاعل مع كل رموز الهداية وعلاماتها بطريقة إيجابية وفعالة..

دائرة الهداية وتفاعلها المستمر

وهكذا فإن الاهتداء والهداية مرتبطان بطريقة تجعل فصلهما عملية صعبة، مثل تفاعل دائري مغلق..

العناصر الأصلية الموجودة في التفاعل تنتج مركبات جديدة تظل تمد العناصر الأصلية بروافد إضافية للتفاعل.. فعلامات الطريق موجودة فعلاً - ولكن الانتباه لها، واتباعها، يتطلب إرادة ذلك، يتطلب الاهتداء، والاهتداء سيؤدي بدوره إلى الانتباه إلى علامات أكثر وضوحاً.. والنكوص عن الاهتداء، أو عن إرادته سيخفف من التفاعل كله.. وقد يقلبه على أعقابه..

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣/٧] - ليس لأن الهداية نزلت هكذا كيفما اتفق، ولكن الله وضع علامات الهداية للجميع، ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠/٩٠] ..﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣/٧٦]، ولكن ليس الجميع ينتبهون، ليس الجميع يهتدون..

وعندما ينتج ذلك التفاعل عن الوصول إلى الطريق

الصواب، فإن الإقرار، بأننا ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، هو إقرار بالأمر الواقع، إن هذا كله ما كان سيكون لولا أن وضع الله كل تلك العلامات على الطريق، ووضع قبل ذلك، تلك الأدوات الإدراكية التي جعلت من الإنسانِ إنساناً.. وجعلته يفهم تلك العلامات ويقرؤها بشكل صحيح.. إن أراد هو ذلك..

* * *

كل ذلك يساعدنا على فهم ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾..

ذلك أن طلبنا الهداية إلى الصراط المستقيم، هو جزء من مفهوم الهداية بشكل عام، بل هو في الجوهر والأساس من هذا المفهوم..

وهكذا، فإن ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ ترتبط فوراً، بمعادلة اهتدائنا له..

بل بدأبنا، بإصرارنا على ذلك..

بتكرارنا الأمر: سبع عشرة مرة، على الأقل.. في اليوم الواحد..

الفصل السابع

"صراط مستقيم" واحد

وكل ذلك يقودنا، حتماً، إلى ما يجب أن يقودنا إليه: الصراط المستقيم..

والصراط المستقيم، كما رسخ في أذهاننا جميعاً، هو ذلك الطريق السوي الذي علينا أن نسير عليه..

لن يتغير شكل هذه الاستعارة كثيراً من الخارج، عندما نخوض في معانيها وننقب في جذورها..

لكن جوهر فهمنا للصراط، سيتعرض لعملية تحديث شاملة، بحيث إن هذا الطريق لن يبقى منه إلا اسمه..!

* * *

أول ما يلفت نظرنا في الصراط، أن الفعل الذي اشتق منه، هو "سرط" بالسين، وليس صرط، بالصاد..

أي إنه لا يوجد في لسان العرب، فعل "صرط".. وإنما هناك سرط..

لكن عندما جاء الصراط، أبدلت السين صاداً.. لماذا يا ترى؟..

جدل السين والصاد

هذا الإبدال، بالذات، إزالة السين، وإحلال الصاد، يوحي بأشياء كثيرة لو حاولنا أن نقف عنده، ونحن في بداية تنقيبنا عن المعاني، أول الصراط..

السين سهلة، توحي أن الأمور ستكون يسيرة، ستكون بلا عسر، بلا مشاكل، بلا مخاض..

الصاد، على العكس من السين، تقع في الطرف الآخر، إنها صعبة، بل هي رمز للصعوبة والتعقيد، وعندما تحل محل السين، بالذات في السياق الذي نحن فيه، فإن الصاد تقول لك، ببساطة، إن الأمر ليس بسيطاً أبداً، بل إنه صعب جداً، كل خطوة فيه تشبه إزاحة صخرة كبيرة من أمامك.. أو حملها على ظهرك.. أو الاثنين معاً..

رسالة الصاد البديل عن السين واضحة: إنها بمثابة إشارة مبكرة تخبرك، تخبرنا، أن الطريق، بالتعريف، أقصد الصراط،... لا يمكن أن يكون سهلاً.. إنه أي شيء، وكل شيء، إلا أن يكون طريقاً سهلاً معبداً ومرصوفاً ومهيئاً لك لتسير عليه بيسر..

لن يكون مفروشاً بالورود، بل ربما بالأشواك، بالزجاج المطحون.. بالألغام حتى..

ربما أي شيء، لكن ليس السهولة واليسر..

السين للأفراد.. الصاد للجماعات

وهذا الابدال ليس إبدالاً نادراً جداً، وله دلالاته في مثل قرآني آخر، سيقدم لنا الضوء على دلالة الإبدال في الصراط..

فلفظة (بسطة) قدمت في القرآن الكريم مرتين: مرة مع الإبقاء على السين، ومرة مع إبدالها صاداً - الأولى عن طالوت ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧/٢]..

والأخرى مع إبدالها صاداً ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ [الأعراف: ٦٩/٧]..

الفرق الجوهري بين السياقين، الذي استدعى الصاد، هو أن السياق الأول كان سياقاً فردياً، سياقاً يتحدث عن شخص واحد..

أما السياق الثاني، فكان سياقاً جماعياً، يمكن أن يكون عن مجتمع ما، أو عن طبقة في مجتمع، أو عن حضارة بأسرها، لكنه ليس سياقاً فردياً بأي حال من الأحوال..

السين، للأفراد إذن..

والصاد، للجماعات ..

وهذا يضع مفهومنا للصراط في ذات السياق ..السياق الجماعي الذي ينأى عن طريق الأفراد وانفراداتهم.. إنه ليس طريق الأفراد إذن، بل هو طريق المجتمعات، طريق الشعوب والأمم.. قد يكون طريقاً للهاوية وللجحيم، وقد يكون طريقاً للنعيم والفوز..

بين الصراط والسبيل

هذا الطابع الاجتماعي الأممي للصراط، هو ما يميز الصراط، عن السبيل.. فالسبيل يمكن أن يكون سبيلاً لفرد، ويمكن أن يكون سبيلاً لمجموعة أشخاص، لكنه لن يقتصر - كما الصراط - على أن يكون للمجتمع كله..

أول ما يلفت النظر، أن السبيل ليس واحداً بالضرورة، إنه (سبل) في أحيان كثيرة..

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٤/١٢]..

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩]..

فالسبل يمكن أن تكون متعددة المظهر ومختلفة المظهر، لكن الصراط لا يكون إلا واحداً - لم يأت أبداً بصيغة جمع في القرآن الكريم، رغم أن جمعه (صرط) مثل جمع (كتاب - كتب) أمر مقبول لغوياً، لكن ذلك لم يحدث أبداً.. وظل الصراط المستقيم واحداً، في إشارة واضحة لا مفر من الانتباه لها، إنه غير قابل للتعدد، بينما السبل قابلة، وقد يكون التعدد من طبيعتها أصلاً..

بينما الصراط لا يقبل ذلك..

الصراط واحد..

* * *

ما الذي يعنيه ذلك بالضبط، هذه التعددية - مقابل تلك الأحادية، تعددية السبل وأحادية الصراط؟..

وقبل ذلك، ما العلاقة التي تربط بينهما؟..

سبل متعددة لصراط واحد

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ٥/١٦]..

إذن، السبل، تسبق الصراط المستقيم، والمضي في هذه السبل، يمهد للوصول إلى الصراط المستقيم..

وهذا يبدو منطقياً مع ثنائية التعدد والأحادية المشار إليها آنفاً، ذلك أن هناك سبلاً متعددة، يمكن أن تؤدي إلى طريق واحد..إلى صراط واحد، يؤدي بدوره إلى مكان محدد..

إنها ليست تعددية مفتوحة، بل تعددية نقاط الانطلاق المختلفة، التي يجب أن تصل إلى نقطة محددة سلفاً، يبدو منها الصراط المستقيم..

التعدد إذن ليس تعدداً بلا ضوابط ولا حدود..

بل هو مثل روافد متعددة ستصب كلها في نهر واحد (علينا أن نتذكر هنا أنه سيصب بدوره في بحر آخر)..

السبل المشروطة..

حتى هذه السبل إذن، هي ليست "السبل" على

إطلاقها.. بل هي مربوطة أبداً ودائماً، لكي تكون السبل التي نريد، بكونها سبل الله.. وليست أي سبل أخرى، وهكذا فإن الخطاب القرآني عندما يطلق "السبل" فإنها تكون سبل ضلال، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣/٦].. بينما تعرف سبل الحق لتميز: سبيل الله، سبل السلام، سواء السبيل، سبيل الرشاد..

قد تؤدي كل الطرق إلى روما، كما يقول المثل الشائع، لكن ليس كل السبل تؤدي إلى الصراط..

* * *

فلنتنبه هنا أن كل الأفعال التي ارتبطت بسبيل الله، كانت أفعالاً من نوع ﴿قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾..

وهي كلها أفعال تدور حول معنى الانتقال- بالجهد - من موضع إلى آخر، أو من مكانة إلى أخرى.. سواء كان ذلك عبر الإنفاق أم عبر القتال أم عبر تغيير المكان (الهجرة) أم ما يختصر ذلك كله: بذل الجهد.. أي الجهاد..

كل هذه أفعال متنوعة وعامة جداً، ولا تكتسب مكانة خاصة إلا عندما تصب في سبيل الله؛ أي عندما تكون سبيلاً مؤدياً إلى النقطة - الهدف من السبل.. الصراط..

بعبارة أخرى إنها لا تكتسب أهميتها: إلا عندما تكون

جزءاً من عملية التراكم في البناء الاجتماعي والحضاري.. كما سيتكامل ذلك مع مفهوم الصراط..

هندسة الصراط- هندسة السبيل

الفرق الأساسي بين السبيل والصراط، هو أن السبيل، لا شكل هندسي له..

إنه مفتوح، لا شيء يحده من الجهات الأربعة، المهم فيه هو اتجاهه فقط، وهو لا يملك غير سطح واحد فقط.. السطح الذي يكون بمثابة الأرضية لهذا السبيل، وأرضية السبيل هذه هي القيم الدافعة للفعل في سبيل الله - لكنها السطح الوحيد الذي يملكه السبيل..

والمعنى في ذلك واضح وشائع، فالأسير يقال عنه، عندما يفك أسره إن «سبيله قد أخلي».. وهذا يعني أنه امتلك قدراً أكبر من الحرية..

فالسبيل، إذن، هو حركة بالاتجاه، أما المكان فهو لا يملك غير سطح واحد، هو الدافع القيمي لهذه الحركة..

الصراط شيء آخر تماماً..فالفعل سرط، وهو الجذر الأصلي للسراط الذي أبدلت سينه صاداً، يعني ببساطة: ابتلع..

والفعل (سرط) يستخدم بهذا المعنى، سرط الطعام، البلعوم يسمى مسراطاً، والداء الذي يبتلع الناس والدواب كانت العرب تسميه سرطاناً..

إذن سرط بمعنى ابتلع..

والصراط هو ما يبتلعنا..

ألسنا جميعاً هناك؟

والابتلاع مرعب حقيقةً عندما نتخيل أنفسنا بين أنياب وحش كاسر ونحن ندلف إلى أحشائه المظلمة ، لكن هذا ليس كل نماذج الابتلاع، فنحن أحياناً نبتلع بالتدريج ودون أن نشعر، ويتم إقناعنا أن بطن الحوت الذي نحن فيه هو المكان الأفضل، وأن الحياة في داخل بطن الحوت تمثل أفضل ما يمكن تخيله من حياة، بل إن أي حياة خارج بطن هذا الحوت لا يمكن حتى تخيلها..

الابتلاع إذن، يمكن أن يكون انهماكاً في حياة ما، انغماساً فيها، بغض النظر عن إيجابياتها أو سلبياتها..

ونحن نقول ذلك فعلاً، نستعمل التعبير "ابتلع" عن انشغالنا بالحياة وتفاصيلها وتفصيلاتها.. فنقول: ابتلعتنا الحياة، ولا نقصد إلا انهماكنا بها..

* * *

والجوهر في هذا المعنى، بعد تجريده من تفصيلاته، أن شيئاً ما عندما يبتلعك، فإنه يحيط بك من كل جهاتك، وهذا شرط أساسي في أي عملية ابتلاع على الإطلاق، الشيء المبتلع سيكون - حتماً - محاطاً من جميع الاتجاهات..

ومن أجل هذا، فقد قيل عن الصراط، إن من صفاته الإحاطة، وإنه على وزن حزام وشداد..

ومن أجل هذا أيضاً، فقد شبه البعض الصراط بالممر

الواصل بين النقطتين وليس الطريق، وهذا أدق، لكنه ليس ممراً بجدارين وسماء مفتوحة، إذ إن الممر يمكن أن يكون كذلك، مثل ممر بين جدارين، لكن الصراط، يمتلك تلك الخاصية التي تميزه عن السبيل، إنه يحيط بك من كل الجهات، إنه ليس صراطاً إن لم يكن كذلك، أي فراغ في أي جهة، سيحدث صدعاً في عملية الابتلاع.. وسيفرغها من معناها..

إنه، بالذات، أن يحيطك من كل الجهات..

الصراط نمط حياة "يحيط بك"

ما الذي يعنيه هذا هنا ؟يعني أن "الصراط" هو ما يكون كل ما يحيط بك، ليس أن يكون مجرد أرضية من القيم والدوافع، كما يمكن للسبيل أن يكون، بل هو يكوّن السقف والجدران كذلك؛ أي إنه يتجاوز الرؤية المجردة، إلى أن يكون مشروع عمل متكاملاً، مشروعاً فيه سقف وأفق، كهدف واضح، والجدران فيه قائمة حدوداً واضحة مثل كل الجدران، تحمي من المؤثرات الخارجية، وتمنح القوام لما هو في الداخل..

الصراط إذن ليس فكرة رجراجة - ليس شعاراً فضفاضاً، بل هو مرحلة عليا تتم فيها ترجمة الأفكار والشعارات والقيم والمنطلقات، لتكون عملاً حقيقياً، لتكون حياة حقيقية، تمزج فيها النظرية بالتطبيق، وتكف الشعارات أن تكون مجرد شعارات، بل تنزل إلى الواقع، لتفعله، بل لتعيد صياغته وتشكيله..

يمكن للنظرية المجردة، أن تحيط برأسك، بعقلك، يمكن أن تخطف قلبك، لكن لا يمكنها أن تحيط بك كلك، لا يمكنها أن تحيط بك بكل تلك الثنائيات الموجودة فيك، بين العقل والقلب، والروح والجسد..

لا يمكن لنظرية، مهما كانت متقنة، أو متماسكة، أن تحيط بك كلك.. لا يمكن لنظرية أن تبتلعك كلك..

لا يفعل شيء ذلك، إلا إذا كان مشروع عمل كاملاً، نمطاً للحياة.. تمتزج فيه النظرية بالتطبيق، لتعيد صياغة الحياة..

لا شيء يبتلعك تماماً، إلا شيء كهذا..

وعندما نتحدث عن الصراط، أو عن نمط الحياة الذي يبتلع، أو عن النظرية وعن تطبيقها، فإن ذلك كله لا يخص الصراط المستقيم وحده، بل صراط الجحيم أيضاً..

فكل نظرية، إلحادية كانت، أو إيمانية، اشتراكية أو رأسمالية، مادية أو روحية لن تتمكن من الإحاطة بالإنسان كله، قد تكسب عقله أو قلبه أو جزءاً من اهتمامه، لكنها لن تحيط به كله، بعبارة أخرة لن تبتلعه كله، ما لم تتحول لتصير مشروعاً متكاملاً، نمطاً للحياة تتمثل فيه القيم والمبادئ لتصير سلوكاً معاشاً..

يمكن أن تقود النظرية - وبناؤها الحياتي - إلى الجحيم..

ويمكن أن يكون ذلك الصراط، نمطاً مستقيماً لحياة مبنية على نظرية الاستقامة..

وعندها ستؤدي إلى النعيم..

إلى السائق والفران وبائع الورد.. مع التحية

"نمط الحياة" هذا، هو الطريقة الناجحة الوحيدة (حتى الآن!) لنقل المبادئ والأفكار والمبادئ والعقائد والإيديولوجيات بشكل جماعي؛ أي إلى عموم الناس..

الأفكار والمثل العليا، والإيديولوجيات والعقائد، لا يمكن أن تصل لجميع الناس، ثمة فئة محددة ستنتج هذه الأفكار أو إنها تكون مجددة لها إذا كانت عقائدَ سماوية، وثمة فئة أوسع قليلاً من سابقتها ولكنها تظل محدودة، يمكنها أن تتفاعل مع الأفكار والعقائد، تؤمن بها، تكون وسطاً للتفاعل ونقل هذه الأفكار إلى المجتمع..

لكن، رغم ذلك، فإن عموم الناس، ليسوا من هاتين الفئتين، لا يقلل هذا من شأنهم شيئاً، ذلك أنهم قد يكونون أكثر صلاحاً، وأكثر تمسكاً، وأكثر قدرة على بناء المجتمع.. لكنهم عموماً غير قادرين على التقاط الفكرة، أو الايمان بها، ما لم تتحول لتصير نمطاً للحياة، ما لم تتمثل لتشكل أسلوباً للحياة، سلوكاً وممارسة..

إن سائق الحافلة، والفران، والبائع على الناصية، وشرطي المرور، والمئات من سواهم، قد لا يتمكنون من التفاعل كثيراً مع ما نسميه نحن "رؤية الحياة". لكن عندما تتحول هذه الرؤية لتصير نمطاً للحياة، طريقة للحياة، فإنهم

سيتشربون بهذه الرؤية، ويكونون جزءاً من إطارها العام، حتى لو لم يتحدثوا عن "الرؤية" والتنظير طول الوقت، إنهم باختصار جزءٌ فاعل أساسي في تلك المرحلة؛ أي عندما تتحول الرؤية لتصير نمطاً حقيقياً للحياة، وليس قبل ذلك..

وهكذا، فإن العقائد والإيديولوجيات عموماً مرت بهذه المراحل، وهي لم تنتشر على نطاق جماهيري وشعبي واسع، إلا عندما تم تحويلها وتبنيها لتصير نمطاً للحياة..

فالليبرالية، مثلاً، التي تروج اليوم على أنها بديهة من بديهيات الإنسانية غير قابلة للنقاش، لم تصبح كذلك إلا عندما تم تحويلها إلى نمط للحياة، ولاسيما فيما يتعلق بالفردية والحرية الشخصية.. قبل ذلك كانت الليبرالية مجرد "رؤية نظرية للحياة"، يؤمن بها من أنتجها ونخبة أوسع قليلاً وجدت في هذه الرؤية ما تؤمن به.. كذلك هو الحال مع أي عقيدة سادت و انتشرت و صارت نمطاً للحياة في هذه البقعة أو تلك..

وكذلك سيكون الأمر مع ما نريد له أن يسود من عقيدة الحق والتوازن و "السلام"..

السبل: كيف تؤدي إلى الصراط؟

وهذا كله يذكرنا بالسبل وما هو مهم فيها: أن تؤدي حقاً إلى الصراط.

ولكن كيف يمكن لمن هو في السبيل، يشقه شقاً، أن يتأكد من أنه سيؤدي به إلى الصراط؟.. قد تكون نيته

صافية وهو يعمل (يجاهد، يهاجر، ينفق) في سبيل الله حقاً.. أو هكذا يحاول أن تكون، ولكن مع ذلك، لا تؤدي السبل إلى الصراط، فسعة السبيل،و عدم وجود حدود واضحة أحياناً، تجعل من الأمر واسعاً لدرجة أنه لا يصل إلى النقطة - الهدف.. ومن السهل أيضاً، على الشعارات والنظريات، أن تتعدد، وتتوسع، وتكون تطبيقاتها واسعة وبراقة، ولكن لا تصل للصراط..

ما هو المحك في الأمر، الذي يحدد إن كان السبيل خطوة للوصول إلى الصراط، أو إنه لن يكون كذلك؟..

الأمر هو، هل هذه الأفعال، التي هي في سبيل الله، تبني حجراً في ذلك المشروع... هل تحول الرؤية إلى واقع؟.. هل تقدم خطوة واحدة في بناء "نمط الحياة" **الصحيح وتقديم الفكرة إلى العالم عبر تقديم نموذج تطبيقي؟..**

لذلك، فإن "الصدقة" - في سبيل الله - يمكن أن تكون مجرد عمل خير، صدقة على باب الجامع، لن تتقدم خطوة في مشروع عالم أكثر عدالة وأقل فقراً، لكنها، يمكن، لو قدمت بشكل مختلف، وعبر آليات مختلفة، أن تروج لعالم آخر، أن تقدمه للناس لكي يساهموا في بنائه..

وكذلك فإن القتال، يمكن أن يكون في سبيل الله بالنسبة إلى من يقاتل، ولكنه يمكن أيضاً ألا يكون أكثر من ردود أفعال مجردة عن المشروع الحضاري، مجرد رغبة في الثأر لكرامة مجروحة أو الانتقام لقتلى سقطوا ظلماً

وعدواناً.. لكن قتالاً آخرَ، ربما بالأسلحة نفسها، يمكن أن يكون مختلفاً جداً، إذا ارتبط بالمشروع، بالدفاع عن نمط حياة قادمة، إذا كان ضمن ضوابط قرآنية ثابتة لا تتغير..

الشيء نفسه، يطبق، ومن باب أولى، على العمل الفكري، ذلك الجهاد في إنتاج الأفكار، في تقديم قراءة جديدة لنص لا و لن يمسه التغيير..

يمكن أن تكون هناك قراءات كثيرة ومتعددة، وليس فيها ما يضج بالخطأ الواضح، أو ما يعارض القراءة السائدة، وقد يكون بعض القراءات أنيقاً.. جميلاً.. متناسقاً..

لكن ليس المهم أن تكون القراءة مرضية لأذواق المتلقين، المهم هو فاعليتها، المهم هو أنها تفعل النص القرآني، وتساهم في تقريب النموذج، وبنائه.. تساهم في جعل المتلقي، ليس متلقياً فقط.. بل فاعلاً أيضاً، هناك، سيكون ذلك السبيل مؤدياً إلى الصراط المستقيم.. إلى مشروع العمل، ونمط الحياة الحقيقية..

ولا يعني هذا التشكيك بنية من يعمل في سبيل الله، فذلك أمرٌ لا يعلمه إلا علام الغيوب.. ولكن العمل الصواب يجب أن يجمع بين النية، والتخطيط الواضح، للوصول إلى ما ينبغي الوصول إليه..

صفة واحدة للصراط

لكن الصراط - الحق، الصراط الذي نطلب الاهتداء إليه، لم يوصف في الخطاب القرآني في الغالب إلا بصفة

واحدة فقط - صفة واحدة تماهت مع هذا الصراط حتى صار من الصعب فصلهما..

كانت ثمة مرات قليلة ذكر فيها الصراط بإطلاقه، وكان ثمة مرات أخرى، قليلة أيضاً، نسب فيها الصراط الحق إلى الحق عز وجل، وكان هناك، بالإضافة إلى الصفة الغالبة المتماهية، وصف آخر تكرر مرتين فقط، الصراط السوي..

لكن الصفة الأكثر استعمالاً - ٣٣ مرة - كانت هي الغالبة، والمتماهية، حتى صرنا لا نقول الصراط، إلا إذا أردفنا: المستقيم..

الأصل من النهوض

ولفظ "المستقيم" لفظة تعني أكثر بكثير من معنى الامتداد الهندسي المجرد، الذي لا يحيد إلى تلك الجهة أو هذه، فاللفظة مشتقة من الفعل "قوم" - وهو الفعل نفسه الذي يأخذ هذا الدور المركزي المهم في الصلاة (وإن كان المغيب عن فهمنا الحالي)..

فإقامة الصلاة، هذا المعنى الشامخ الذي يجعل من الصلاة وسيلة للبناء وللتشييد مشتقة أيضاً من ذات الفعل، والفعل بحد ذاته يحمل ذلك المعنى غير الخفي، ولكن الذي نتغاضى عنه دوماً، وهو أن الفعل قوم، بالمعنى النقيض للجلوس، يشير أيضاً وضمناً، إلى فعل "النهوض"، فعل "النهضة"، فعل القيام من السبات

الحضاري، من اللا شيء السائد، نحو آفاق خلقنا أصلاً من أجلها..

لذلك لن يكون غريباً أبداً، أن يلد الفعل "قوم" الذي أنتج الإقامة، لفظاً آخرَ لا يبتعد كثيراً عن المعنى العميق للإقامة..

إنه الاستقامة.. التي تماهت مع الصراط، وكونت ذلك الصراط المستقيم، الذي نطلبه، سبع عشرة مرة في اليوم..

الاستقامة: عملية التحول المستمر

الأمر الملفت للنظر في "المستقيم"، أن زيادة المبنى التي دخلت على الفعل، زادت من ربط الفعل بالمعنى، فحرفا السين والتاء، عندما يدخلان على الفعل، ويحولانه إلى مستفعل، (مثل مستديم، مسترجل، مستكين، مستوحش..) لا يؤكدانه فحسب.. بل هما يرتبطان به في أثناء عملية تحوله تلك، إنه المعنى المرتبط بعملية التحول والصيرورة، التي تطرأ على شيء وتجعله يصير شيئاً آخر.. "مثل استنوقت الابل واستتيست الشاة"...

الصراط المستقيم إذن، بهذا المعنى، هو ذلك الصراط الذي تجري من خلاله، وفيه، عملية التحول والصيرورة..

التحول إلى ماذا؟.. وصيرورة ماذا؟..

عملية التحول إلى كل ما هو متضمن في فعل القيام - النهوض.. النهضة.. الارتقاء.. النماء..

إنها تلك الصيرورة التي تقودنا ضمن عملية إعادة تكوين مستمرة، لا تنتهي لأنها لا تعرف حداً، لا تنتهي لأنها تحتاج دوماً إلى عملية تقييم وتقويم، ولأن الطبيعة الإنسانية تحتوي نوعاً من القابلية للتراجع والارتداد، فهذا يحتم أن تكون عملية التقويم والتصحيح، عملية تحمل نوعاً من الاستمرارية، نوعاً من التفاعل المستمر الذي لا يتوقف لأن نواتجه ستؤدي إلى المزيد من التفاعل، وهكذا تكون الاستقامة وعملية صيرورتها مثل تفاعل دوار لا يعرف النهاية؛ لأن هدف التفاعل هو الاستمرار في التفاعل نفسه، فالصراط هنا يشبه سلالم كهربائية متحركة لا تنتهي أبداً، كلما ارتقيت ستعرف أنك يمكن أن ترتقي أكثر، وعملية الارتقاء يمكن أن تستمر لأن لا قمة هناك أصلاً، ولأن التراجعات تحدث بشكل حتمي ما دام من يرتقي هو بشر، وهذا كله يزيد من دفق وديمومة عملية التحول المستمر، الصيرورة المستمرة التي هي رديف "الاستقامة"..

الإسلام بين الصراط والقسطاس

ما يلفت النظر جداً هنا، ويدعو للتأمل بطريقة لا تدع مجالاً للتجاهل، هو أن لفظ "المستقيم" لم يطلق في القرآن الكريم، إلا على الصراط (٣٣ مرة كما مرّ سابقاً)، وعلى شيء آخر واحد فقط هو "القسطاس

المستقيم" ..﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ ..﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾..

وهذا كله يقدم لنا إضافة نوعية لصورة الصراط في أذهاننا، إذ إن لفظ المستقيم هنا، سيذكرنا بالميزان، بالقسطاس، بآلة قياس الأشياء ووضعها ضمن عيار موحد يرتب العلاقة بينها..

فالاستقامة أيضاً، تعني وجود هذا المعيار الثابت الذي يزن كل الأمور ويقيمها ويرتبها بالنسبة إلى المعيار نفسه..

وبعد وجود هذا المعيار، فإن الموازنة تصير ممكنة، والتوازن يصبح أيسر، أعني أن وجود وسيلة للقياس، ولمعرفة وزن الأمور، هو الخطوة الأولى في التوازن، فالأمر ليس أن تعرف أن شيئاً محدداً هو أثقل أو أخف من شيء آخر، وتقف عند هذه المعرفة، الأمر هو أن تصنع التوازن بعد أن عرفت.. أن تضيف هنا وتحذف هناك لتصل لذلك التوازن - القسطاس المستقيم..

هذا الحد الفاصل الذي يوازن بين الأمور، ويضعها في معيار الموازنة، هو جوهر الصراط المستقيم، الذي هو جوهر الإسلام، إنه تلك المساحة التي توازن بين مختلف الثنائيات الموجودة في حياتنا، والتي يشكل الصراع بينها قطب الحياة الإنسانية، التوازن بين الحق والواجب، بين الفرد والمجتمع، بين نفخة الروح وقبضة الطين، بين الغيب والمادة، بين ما هو منظور وما هو غير منظور، بين الدنيا ومتطلباتها والآخرة ومتطلباتها، بين الماضي والمستقبل،

بين المثال والواقع، بين النظرية والتطبيق، بين الغريزة والعقل،بين الهدم و البناء، بين الفطرة والاكتساب، بين ما هو حق وما هو حقيقة، بين ما هو كائن وما هو يجب أن يكون..

هذه التوازنات، هي جوهر الإسلام، لا إفراط، ولا تفريط، المنطقة التي تلتقي فيها هذه الثنائيات على معيار المساواة، هي ذلك البعد البؤري الذي يتجلى فيه معنى الإسلام، وهذه المنطقة ليست ضيقة كما قد يتخيل كل من يعيش في عالم اللا توازن، في كفة واحدة من الميزان، ذلك أن مساحتها ليست كمية، بل هي نوعية، إنها المساحة الأوسع للإثمار، وللإخصاب، وللنماء..

بل إنها المساحة الوحيدة التي يمكن للإنسان العدل أن ينمو فيها.. للمجتمع العدل، أن ينشأ فيها..

ذلك هو الصراط، الذي نطلبه كل يوم..

تاريخ الصراط المستقيم: حكاية الخيار الثالث

وهذا الصراط المستقيم له آلياته، وهو يتعرف بالتضاد، بالتمايز، فنحن لا نعيش في أنبوبة مفرغة من الهواء، والمشروع الحقيقي، لا يمكن أن يكون في عالم افتراضي - بل هو مشروع يحدد موقعه بالنسبة إلى ثوابته، وأيضاً بالنسبة إلى المشاريع الأخرى، خاصة عندما تكون مشاريع متحققة على أرض الواقع، نماذج حضارية موجودة فعلاً وليست مجرد رؤى ونظريات.. وهذا التعريف بالتضاد يمنح ذلك التمايز الذي هو الضمانة الحقيقية لعدم ذوبان

(المشروع قيد الإنجاز) في مشاريع الآخرين، وتحوله إلى نسخة منها عبر وضع لافتات مختلفة فقط..

لكن الحق عز وجل، لم يعرف هذا الصراط بكونه صراط الذين أنعمت عليهم فقط - بل عرفه أيضاً بالتضاد ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ - كان يمكن أن يكون التعريف مقتصراً على الصفات الإيجابية للذين أنعم عليهم، الإيمان، التقوى، الخشوع.. إلخ.. لكن الحق يعلمنا هنا، أن المشروع الحقيقي لابد أن يتعرف بالتضاد، أن تكون قوة الطرد فيه قوة تميزه وتمنحه القوام والحصانة..

فبالضد، تتميز الأشياء..

يوجد ثمة خيار ثالث دوماً..

الأمر الآخر الذي يجب التوقف عنده ملياً - هو أن السورة تدلنا على وجود خيار ثالث.. إنها تعلمنا أن الأمر لا يقتصر أبداً على خيارين اثنين، قد يبدو أحدهما أقل سوءاً، ويدفعنا إحباطنا وسلبيتنا إلى اتخاذ ما نعتقد أنه الأهون والأسهل..

دوماً يصادفنا خياران، طريقان، ونعتقد أن لا خيار غيرهما، ولا طريق غيرهما، فنضطر للاختيار من بين ما هو أمامنا، وقد يكونان في حالة تنافس شديد على الأسوأ، وقد يكون واحدٌ منهما أقل سوءاً بقليل وبفارق طفيف من الآخر، لكن العالم سيبدو أنه ضاق ليقتصر على هذين الخيارين، وبذلك لن يكون هناك سوى أن تختار الأقل سوءاً، رغم أنه قد يكون سيئاً جداً أيضاً..

الفاتحة تعلمنا أن نتمسك بالخيار الثالث.. أن ننظر دوماً باتجاه الخيار الآخر، ألا نقبل ما يسمونه أهون الشرين ما دام شراً أيضاً، ولكن أن نبحث عما هو صواب حقاً، أن ننحته نحتاً، نحفره حفراً، نبنيه حجراً تلو آخر، إن لم يكن موجوداً بوصفه بديلاً و خياراً حقيقياً.. لكن، أبداً، ليس أي خيار، فقط لأن الآخر يبدو أكثر سوءاً..

(وحياتنا مليئة بهذا، بخيارين كلاهما سيئ، بخيارين أحلاهما مرّ، ولكن سلبيتنا تزين لنا أحدهما، وتجعله يبدو مقبولاً، فنضطر للاختيار كما لو أنه قدر..

لكن الفاتحة، تقول لنا، ببساطة، إن الخيار الثالث ممكن دوماً، فقط لو عملنا عليه)..

* * *

الصراط المستقيم إذن يعرف بثلاثة أشياء..

مثبت واحد، ومنفيان..

مثبت هو ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧/١]..

ومنفيان هما ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ و ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾..



الفصل الثامن

حكاية الذين أنعمت عليهم: حكاية لم تنته بعد

والحديث عن الذين أنعم الله عليهم، واسع جداً لدرجة أنه يشمل الإنسانية كلها، ذلك أن نِعم الله، التي أنعمها على الجميع، لا تعد ولا تحصى، ولا يمكن أبداً الخروج من نطاق النعمة الإلهية؛ لأن مجرد "وجودك" - على الإطلاق - يدخلك في حظيرة الذين أنعم الله عليهم، بنعمه اللا نهائية.. لكن بما أننا نتحدث عن التمايز، فإنه من المؤكد، أن هناك نعمة إضافية، لعلها تجعلنا نفهم كل النعم الأخرى، لعلها تساعدنا على استثمارها وتوظيفها بشكل صحيح، والاستثمار والتوظيف للنعم هنا ، هو جوهر الشكر لنعمه عز وجل..

لكن هناك "نعمة" إضافية، أنعم بها الله عز وجل، وهي التي تشكل الركيزة الثابتة، في ذلك الصراط المستقيم..

الإنعام الجماعي

لم يرد سياق (الإنعام) بشكل جماعي، كما في ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ التي تشير إلى إنعام خصَّ فئة، أو

قوماً، أو أمة دون غيرها إلا في أربع مرات.. في كامل الخطاب القرآني..

مرة واحدة، كانت في الفاتحة ..﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾..

وثلاث مرات كانت بصيغة ﴿أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾..

كان الخطاب في الفاتحة على لسان الإنسانية، فكانت الإشارة إلى ﴿أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾..

لكن في المرات الثلاث الأخرى، كان الخطاب الإلهي موجهاً إلى فئة محددة - فكان ﴿أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾..

في المرات الثلاث كان المخاطب هم بنو إسرائيل..

وجاءت كلها في سورة البقرة، على بعد آيات من سورة الفاتحة..

ولكل هذا مدلولاته.. ومغزاه..

* * *

فلنتأمل فيما أنعمه الله على بني إسرائيل..

لو فهمنا من النعم، أنها الثروات والموارد والمرتبة العليا على مقياس الترف والغنى، لما كان لذلك أي معنى مع بني إسرائيل..

ذلك أنهم كانوا، بهذا المقياس، يشغلون المرتبة الدنيا في السلم الحضاري، كانوا، كما هو معلوم تاريخياً، فئة مهمشة تماماً، تعيش كطبقة عمالة "سخرة" في حضن أهم وأقوى الحضارات آنذاك: الحضارة الفرعونية..

كانوا يعيشون حالة استعباد شبه تام.. خارج أي عملية حضارية أو إنتاجية، لم يكونوا حتى مشاركين في صنع الحضارة الفرعونية، كانوا مجرد أدوات إنتاج يمتلكها المصريون، مثل الدواب والبهائم..

الحديث عن شظف العيش هو أمرٌ (ترفي) هنا، فوضع بني إسرائيل كان أسوأ بكثير من هذا، كان أطفالهم يبادون، ونساؤهم يغتصبن كما سيفعل بأي طبقة مستعبَدة في نظام استعباد شامل.. أي حديث عن نعم الله على بني إسرائيل بالمعنى المادي لكلمة نِعم، سيكون لا رابط له هنا.. فما أنعم الله به عليهم هو إذن شيء آخر تماماً.. لا علاقة له بدعة العيش وترفه..

فلننتبه أيضاً، إلى أن المرتبة الدنيا بشرياً، التي كان بنو إسرائيل فيها، تشابه جداً، مع اختلاف في التفاصيل، المرتبة التي كان عليها عرب الجاهلية قبل القرآن.. (وتشبه أيضاً، المرتبة التي نحتلها اليوم، ولا فخر!)..

عن أي نعمة إذن، يتحدث النص القرآني، أنعمها الله عليهم؟.. فلنتابع السياق، لنعرف معنى النعمة حقاً..

الكتاب: النعمة التفضيلية

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ

﴿يَابَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة ٢/٣٧-٤٠].

السياق إذن، يبدأ من آدم، من الهبوط الأول إلى الأرض.. والوعد بأن يأتي هدى من الله..

ما هو هذا الهدى؟.. إنه "النعمة" نفسها التي خصَّ بها الله عز وجل قوماً آخرين، كل نعمه الأخرى كانت مشاعة، لكن هذا الهدى هو "النعمة" التفضيلية التي هي ليست ثروة في بطن الأرض، أو أرضاً خصبة أو مياهاً وفيرة..

ما هو هذا الهدى؟.. هل هو هداية نزلت على بني إسرائيل فجأة، بلا استحقاق، بلا سابق تهيئة؟..

لا طبعاً.. فثنائية الهداية والاهتداء تتضمن تفاصيلَ أكثر من هذه ولها متطلبات أشد تعقيداً من هذا التفسير..

الهدى هنا، هو أن بني إسرائيل، كانوا الأمة التي استلمت الكتاب السماوي الأول: قبل ذلك كان هناك رسالة (مع سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم)، وكان هناك صحف (صحف إبراهيم)، لكن (الكتاب) بالمعنى الواسع العميق والوظيفي للكتاب، كان نعمة خص بها الله بني إسرائيل ابتداءً..

لماذا النعمة الأهم للشعب الأدنى؟

لكن لماذا ينزل الكتاب على فئة من الناس تحتل هذه المرتبة الدنيا أصلاً.. سواء كانوا بني إسرائيل أم عرب الجاهلية؟

لأن هذه المرتبة الدنيا، تشكل التحدي والعقبة التي يمكن أن يثبت أمامها "الكتاب" فاعليته في التغيير، أن يخرجهم من ذلك الدرك، من ذلك القعر الذي كانوا فيه..

عندما يفلح (الكتاب) في إخراج أي أمة من أدنى درك يمكن أن تكون فيه أي أمة، ويجعلها على قمة الأمم... ليس فقط أن يرقي مرتبتها، فهذا يعني ضمناً وفي تحصيل حاصل، أنه قادر على فعل ذلك مع أي أمة أخرى، مع الإنسانية كلها.. فإنه (وعندما يكون الكتاب هو الكتاب النهائي، الخاتم والحاسم، فإنه يمكنه أن يفعل ذلك في كل وقت، فقط لو قرئ بشكل جيد..)..

* * *

هكذا فإن كل النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، مثل إنقاذهم من آل فرعون وفرق البحر والعفو عنهم مرة تلو أخرى، كان من نتائج تفاعلهم مع الكتاب..

وهكذا فإن الآيات التي تقع بين التذكير المتكرر بالنعمة التي أنعم الله بها عليهم هي آيات توجه تفاعل بني إسرائيل مع هذه النعمة التي فضلهم بها الله عز وجل..

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ

تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴿٤٤﴾ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴿٤٥﴾ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿٤٦﴾ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢/٤٠-٤٧]..

فبين الآيتين هناك موجهات عامة وخطوط واضحة لكيفية استثمار هذه النعمة وتوظيفها، (فالتصديق يجب ألا يكون مجانياً) ليس التصديق الذي تدفع من أجله ثمناً قليلاً، بل التصديق الذي يتطلب ثمناً باهظاً، التصديق الذي يجعلك تغير حياتك، التصديق الذي حدَّ حداً فاصلاً بين الحق والباطل، والذي يتطلب أداء متطلبات لهذا التصديق، يتطلب بالذات أن يقود الكتاب عملية بناء حقيقية تبدأ عند الذات، ولا تقف عندها بل تعيد صياغة وتشكيل المجتمع من جديد.. وهذه هي التلاوة الحقيقية للكتاب وليس مجرد قراءة بثمن قليل لا تتجاوز الصوت ومخارج الحروف...

حق التلاوة..

وعندما جاءت الآية الثالثة التي تستخدم ﴿أنعمت عليكم﴾ وتخاطب بني إسرائيل مجدداً، فإن السياق مرة أخرى كان يتحدث عن التعامل مع الكتاب، عن كيفية توظيفه واستثماره بالشكل الأمثل.. كيف؟.. عبر تلاوته حق التلاوة..

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴿١٢١﴾ يا بني إسرائيل

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ [البقرة: ٢/١٢١-١٢٢]..

وحق التلاوة هنا، عندما نربط السياقين، ليس إتمام الأداء الصوتي وإتقانه (وإن كان ذلك ليس خطأ على الإطلاق) لكنه تجاوز الوقوف عند ذلك إلى تفعيل المعاني وتجسيدها، حق التلاوة هو أداء حق أي نعمة؛ نعمة (الكتاب) مثل نعمة البصر؛ وأي نعمة مادية موجودة حولنا..

ما هو التعامل الحق مع كل تلك النعم؟..

إنه، ببساطة، استعمالها بشكل صحيح، توظيفها ضمن سياقها الذي أوجدت من أجله. كل الثروات المعدنية الموجودة في باطن الأرض هي (نعم)، يمكن تحويلها إلى (نِقم) فقط عبر الاستعمال الخاطئ، يمكن أن تكون تلك الثروات نِعماً لبناء مجتمع متوازن وعادل يحقق فيه الإنسان ما خلق من أجله، ويمكن أيضاً لكل تلك الثروات، عبر الاستعمال الخاطئ، أن تتحول إلى وسيلة لهدم العالم وجعله أكثر بؤساً وأقل عدالة..

ويمكن أيضاً، أن (تجمد) تلك الثروات، ألا يتم التعامل معها على الإطلاق..

كل النعم، لو تذكرناها الآن، من أكثرها وأوضحها مادية (مثل اليورانيوم ومصادر الطاقة كلها)، إلى أبسط النعم التي لا يمكن قياسها (مثل الوعي أو مشاعر الحب والأمومة)، كلها خاضعة لقانون الاستخدام المزدوج، أو

عدم الاستخدام على الإطلاق.. كلها يمكن أن تساهم في صنع عالم أفضل وأجمل وأكثر توازناً، وكلها يمكن أن تساهم أيضاً في صنع عالم أسوأ بكثير.. وكلها يمكن أيضاً أن (تحيد)، أن تهمل، دون أن تستخدم على الإطلاق.. وعلى قمة هذه النِّعم هناك تلك النعمة الأعلى، النعمة التي يمكن أن تعلمنا كيف نتعامل مع كل النعم الأخرى..

إنها نعمة "الكتاب الذي أُنزِل"..

* * *

لكي نعرف ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ١/٧]، يحتم علينا أن نعلم ما الذي فعله بعض من أنزل عليهم الكتاب، وكيف طردهم سلوكهم من الصراط الحق، إلى الصراط الآخر..

فمن ؟؟

تبلغنا السنة النبوية، أن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، قد سئل عن المغضوب عليهم والضالين، "اليهود والنصارى؟".. فرد ذلك الجواب المفتوح، "فمن؟..".. ..

وهذا الجواب يفتح أبواب الذهن على التجربتين الكتابيتين الأكثر استحضاراً في الخطاب القرآني.. ليرشدنا إلى الخطأ فيهما لتجنبه، وبالتأكيد فهذا (الخطأ) - أو آلية التعامل كلها مع الكتاب - لم يكن أمراً جينياً محتماً على أهل الكتاب في الحالتين، بل هو "آلية تعامل" يمكن أن نسقط فيها أيضاً، ولهذا بالذات، فإننا نطلب الخيار

الثالث، ونطلب الطريق الثالث، حتى لو لم يتجسم أمامنا، وحتى لو بدا واحد من الخيارين الآخرين أكثر سهولة..

لأننا دوماً على خطر من أن ننزلق إلى هذا الطريق أو ذاك في التعامل مع الكتاب، فإننا يجب أن نكون على حذر من المنزلق..

وعلى معرفة بالآلية - الصواب..

ما الذي جرى بالضبط مع المغضوب عليهم؟؟

ما الذي جرى بالضبط مع المغضوب عليهم؟.. وما الذي جعلهم يستحقون هذه المكانة وهذا اللقب؟.. تتبع الجواب قرآنياً سيضعنا أمام تاريخ بني إسرائيل كله، وهو تاريخ لم يرد في القرآن بتفاصيله وإنما بخطوط عامة عريضة، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ، بل هو كتاب يهدي لبناء الحضارة، والتجربة الإسرائيلية عموماً بكل ما فيها هي نموذج تطبيقي لما يمكن أن يحدث لأي أمة عندما تتعامل كما تعامل بنو إسرائيل.. مع الكتاب..

وعندما نراجع عموم ما فعله بنو إسرائيل، نجد أننا أمام نوعين من المشاكل:

النوع الأول: مشاكل عقائدية تتراوح بين مشاكسة الأنبياء وتكذيبهم وتصل إلى قتلهم، واتخاذ العجل والكذب على الله وادعاء بنوة الأنبياء له..الخ.

النوع الثاني: مشاكل سلوكية تطبيقية، نقض الميثاق، البخل، أكلهم السحت، صيد السبت، عدم التناهي عن المنكر.. إلخ، وهي أمور يمكن أن تحدث في أي مجتمع،

لكن تحولها إلى صفة ملازمة لهذا المجتمع هو الأمر الاستثنائي..

هل يرتبط النوعان من المشاكل؟.. وهل يمكن إلا أن يرتبطا؟ هل يمكن لمشاكل العقيدة والإيمان إلا أن تنعكس سلوكياً على الفرد والمجتمع؟.. ولكن كيف يمكن لأمة استلمت كتاباً سماوياً أن تنحرف لهذه الدرجة عن معاني الكتاب وأوامره؟..

الجواب عن هذا السؤال سيربط هذين النوعين من المشاكل، وسيجعلهما نتيجة طبيعية، لسبب واحد..

سبب متعلق بالكتاب نفسه..بالذات بآلية التعامل مع الكتاب..

التعامل مع "الحروف"

بنو إسرائيل هم الأمة الأولى التي تجرأت على "تحريف" الكتاب، و "التحريف" هنا ليس بالضرورة عملية تغيير أحرف الكتاب، وإن كان هذا وارداً بوصفه نوعاً من أنواع التحريف..

ورد التحريف مرتبطاً بالذين هادوا أربع مرات في الخطاب القرآني، و التحريف هنا هو عن "الموضع"..

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤/٤٦]..

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٥/١٣]..

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١/٥]..

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥/٢]..

وهناك إشارة خامسة لا يذكر فيها التحريف لفظاً - وإنما اختلاق نص ونسبته إلى كتاب الله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩/٢].. ومن الجلي أن هذه الخطوة تختلف في جرأتها عن التحريف الذي ذكر في المواضع السابقة، وهي تخرج عن آلية التعامل مع الكتاب، لأن هذا النص لم يعد "كتاباً" بل صار يدخل ضمن ما هو منحول تماماً.. ومع وقاحة هذه الخطوة إلا أنها نتيجة طبيعية لوقاحة "تحريف الكلم عن مواضعه"..

التحريف: دفع المعنى إلى الحافة

لكن ما هو التحريف لغة؟ لنتمكن من فهم آلية التعامل هذه، التي جعلت من بني إسرائيل "مغضوباً عليهم"، والتي ستجعل أي فئة مغضوباً عليها لو تعاملوا بالآلية نفسها، مع الكتاب..

الحرف، في لسان العرب، الطرف والشفير والحد. أي إنه حافة قصية من موضع ما، وهذا يعني أن التحريف عندما يكون عن كلمة ما، فإنه يعني دفعها إلى أبعد ما يمكن عن مركزها، عن معناها الأصلي الكامن في وسطها، إنه يعني دفعها إلى حافتها لدرجة إخراجها من معناها،

دون إخراجها من لفظها.. ولأن الآيات أشارت إلى أن الأمر كان ﴿بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٢/٧٥] فإنها تشير إلى نية مبيتة لذلك، إلى عملية مقصودة لإخراج اللفظ عن معناه، إلى حافته أو طرفه، أي إلى مكان يكاد لا يكون له علاقة أصلاً بالمكان الأصلي، إلى مكان يكاد يخرج منه إلى مكان آخر.. إلى معنى آخر مخالف تماماً..

كيف يحدث هذا؟ ..إما بتكريس هذا (المعنى - الحافة)، (المعنى - الحرف)، ومنحه القداسة ضمناً بحيث يصير هو فهم الأحبار (والرهبان) الذي سيعامل أي فهم غيره على أنه فهم مرفوض وخارج.. أو أنه يحدث عبر استخدام ألفاظ مشابهة (للمعنى - الحافة)، وإبدالها مكان الألفاظ الأصل، سواء في اللغة الأصل، أو عبر عملية الترجمة التي نقلت فيها التوراة من لغة إلى أخرى..

والنتيجة المتراكمة المتراكبة لكل هذا: أن آلية التعامل مع الكتاب، أدت الى انتقاء حافة اللفظ، حرفه القصي، الذي لا يملك من المعنى والأصل المقصد غير خيط هزيل كالشفير.. وهكذا فإن كل الأخطاء والأهواء والزلات البشرية، وجدت لها (حرفاً ما)، ليبررها، ويكرسها، بل ويقدسها، ويحولها من صفة مذمومة إلى صفة ملازمة تجد التبريرات والتفسيرات من كتاب هو بريء تماماً من ذلك..

كيف يمكن لشيء كهذا أصلاً أن يحدث؟ كيف يمكن لأي أحد أن يغير، ولو بالتفسير والتأويل؟ فكيف بإبدال الكلمات بأخرى؟ بل كيف باختلاق نص كامل؟..

التفاعل مع الكتاب بشروط مسبقة

الإجابة عن هذا السؤال تأتي من طرف المتهم نفسه.. من طرف المغضوب عليهم، الذين اعترفوا بألسنتهم في الخطاب القرآني بالعلة الأساسية التي أدت إلى تعاملهم بهذا الشكل مع الكتاب، والذي أدى إلى تبرير هذا الكم من الأخطاء وزرعه في طبيعتهم ..﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٨٨]..

القلوب الغلف، المغلقة مثل قارورة، المغلفة من الخارج بغطاء كالصوان، هي السبب في كل ذلك..

فالقلب، هو اللب، هو جوهر الإنسان، و "الكتاب" قد أنزل من أجل إصلاح هذا الجوهر، الذي قد يكون مريضاً.. أو فيه مرض ما أو مجموعة أمراض.. فتفاعل القلب مع آيات الكتاب سيجلو عنه أمراضه، ليس بشكل سحري طبعاً، ليس من دون جهد من طرف صاحب القلب، لكن إعادة تركيب هذا القلب، هذه الذات، ستكون أمراً ممكناً، قابلاً للنقاش والأخذ والرد..

أما عندما يكون التفاعل مشروطاً بأن "قلوبنا غلف"، وأن ذاتنا منغلقة، وأن جوهرنا لا مساس به، فإن آلية التعامل مع آيات الكتاب، ستنتهي إلى توظيف هذه الآيات بشكل يتواءم مع هذه الذات المغلقة ويكرس انغلاقها..

كل شيء في الكتاب، سيعاد تدويره وفهمه وتوظيفه ليتمحور حول هذه الذات المغلقة، الذات الغلف..

وهكذا فإن كل مشاكل بني إسرائيل - عقائدياً وسلوكياً - يمكن فهمها على ضوء اعترافهم هم: "قلوبنا غلف"..

البخل.. السحت.. كنز المال.. نقض الميثاق.. كلها أمور تشير صراحة إلى ذلك الغرق في الذات والانغلاق عليها، كيف لا يبخلون؟.. كيف لا يأكلون السحت؟.. كيف لا ينقضون الميثاق متى ما كانت واحدة من بنوده ضد "ذواتهم"؟.. حتى في العقيدة، كيف لا يتخذون العجل وقد أشرب في قلوبهم، فكان لابد أن يظهر في عبادتهم بشكل أو بآخر؟.. كيف لا يؤمنون أنهم الأفضل وأنهم أبناء الله وأحباؤه ما دامت ذاتهم لا تريهم غير ذاك؟.. كيف لا يؤمنون أنهم شعب الله المختار لمجرد أنه أنزل عليهم الكتاب؟.. كيف لا يتحولون ليشكلوا أعتى عنصرية معاصرة؟

كيف لا يؤمنون بأن عزيراً هو ابن الله ما دامت ذاتهم المغلقة الفوقية قد زينت لهم أنهم قد تماهوا معه - عز وجل - وصاروا يرون في أنفسهم ما يرونه في الله؟.. كيف كان يمكن لهذه الذات المغلقة وهي تتفاعل مع الكتاب إلا أن تنتج هذه الرؤية الحلولية لله عز وجل حيث جعل منهم إيمانهم بأنهم الأفضل بالمطلق صورة لشعب حل فيه الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

كيف كان يمكن لهم ألا يكذبوا الأنبياء ولا يحاولوا قتلهم، وكلهم كانوا يقولون لهم إنهم على خطأ، كلهم كانوا يأتون "بما لا تهوى أنفسهم"؟..

أليس كل تاريخهم كان مبنياً على هذا.. على القلب الأغلف الذي لا يرى إلا نفسه فيرى ذاته فوق كل قانون وكل حق وكل شريعة.." و الحاضر..؟"

هل كان ممكناً، بعد هذا كله، إلا أن يكون تعاملهم مع الكتاب، ناتجاً لما أنتج، ما دام القلب كان أغلف..

وكانت الذات مغلقة لا تريد أن يعاد بناؤها؟..

وهل يمكن أن ينتج أي تعامل مع الكتاب بنفس الشروط إلا نتائج مشابهة؟ حتى لو كان كتاباً سماوياً آخر؟

كانت هذه هي آلية المغضوب عليهم..

فماذا عن آلية الضالين؟..

الضلال: القانون لا يحمي المغفلين

لفظة "الضالين"، استخدمت في الخطاب القرآني أكثر من وصف "المغضوب عليهم".. ومشتقات الضلال، هي أكثر بكثير من مثيلاتها من مشتقات الغضب.. قد وصف الخطاب القرآني أكثر من شريحة وفئة بالضلال وبكونهم ضالين..

فمثلاً قوم إبراهيم كانوا ضالين ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧/٦]..

وقريش، أو عرب الجاهلية عموماً، يوصفون أيضاً بالضلال قبل الإسلام ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨/٢]..

حتى من كفر بعد الإيمان، وازداد كفراً، وتوعده الخطاب بعدم قبول التوبة، فإنه يوصف بكونه ضالاً .. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/٩٠]..

حتى الموقف السلبي من رحمة الله، يمكن أن يوصف صاحبه بالضال ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/٥٦]..

إذن "الضالون" مصطلح واسع جداً، يمكن أن يضم كل من يضل، وقصره على فئة معينة من أهل الكتاب، أمر سيحتاج إلى طول تأمل، ذلك أنه ليس من الواضح أبداً وجود ما يدل على أن الصفة محصورة بالنصارى..

لكن فلنتذكر هنا، أن السياق كله يتحدث عن آليات التعامل مع الكتاب، وليس عن الضلال بصفة عامة..

إذن، هو الضلال في التعامل مع الكتاب.. وهذا سيطرح جانباً، كل من كان ضالاً من دون كتاب.. أي إن قوم إبراهيم وعرب الجاهلية وسواهم ليسوا بالمقصودين هنا.. إنهم خارج السياق كله..، نحن هنا نتحدث عن الضالين في آليات التعامل..

* * *

من هو الضالّ؟.. إنه الذي أخطأ الطريق وأخطأ الصراط، اختار الطريق الخطأ وتقدم فيه..

لماذا فعل ذلك؟.. إنه على الأغلب، اتبع قوماً آخرين،

مشى وراء آثارهم لأن الطريق بدا أكثر سهولة أو أكثر أماناً، أو فقط لأنه كان مأهولاً..

ربما لم يكن مقصودهم ابتداءً.. لكنهم لم يفكروا بالهدف وبالنقطة النهائية من الطريق بقدر ما فكروا بنقطة الانطلاق وطبيعة الطريق، ولن يقلل ذلك من خطئهم أو من النتيجة النهائية لعملهم.. فالنية الطيبة، لن تبرر عملاً خاطئاً، بل هي شرط أساسي للعمل الصائب فقط..

اتباع الغير لمجرد اتباعهم

الضلال هو أن تهرع على آثار الغير لمجرد أن تتبعهم.. لمجرد أنهم سبقوك إليه، حتى لو كان طريقهم سيؤدي في نهايته إلى الهاوية، إلى الدرك..

قد يكون هذا الغير جيلاً سابقاً أو أمة أخرى، المهم أنه "غير"..

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٦٩-٧٠]..

إنه أن تهرع على آثار الغير، دون أن تفكر بأين ستوصلك هذه الآثار، في محطتها الأخيرة..

آليات التعامل "الضال" مع الكتاب

لكن السؤال هو: كيف يمكن تطبيق هذا التعريف، على آليات تعامل الفئة الثانية من أهل الكتاب.. مع الكتاب؟..

فلنراجع الآن نقطة الاختلاف الرئيسية مع الفئة الثانية

من أهل الكتاب، فمقابل مشاكل متراكمة ومتنوعة الطابع مع بني إسرائيل، فإن نقطة الخلاف الأساسية (ابتداءً على الأقل) كانت من العقيدة..

كان هناك، ولا يزال، مسألة ألوهية السيد المسيح، والتثليث، وعقيدة الفداء الناتجة عن "الصلب"..

طبعاً يمكن أن تكون هناك فروقات في هذه المسائل الثلاث بين مذهب وآخر، ويمكن أن تكون هناك تاريخياً - مذاهب لم تؤمن بكل هذه العقائد، ويمكن أيضاً أن تكون هناك مقاربات وإقحامات فلسفية لهذه العقيدة أو تلك، بطريقة تجعلها تبدو كما لو كانت أكثر عمقاً.. لكن كل ذلك لن يغير من حقيقة وجود هذه العقائد عموماً، كما أن هذه الحقيقة لا تلغي إمكانية التعايش "معهم"، ذلك أن الخطاب القرآني لا يعلمنا محاكمتهم، بل هو يشير إلى مواطن خلل في آليات التعامل ويحذرنا من السقوط فيها "حذو القذة بالقذة"..

* * *

لكن ما هي آلية التعامل مع الكتاب، التي انتهت إلى ما انتهت إليه من تأليه الرسول والتثليث والفداء؟..

ما الذي حدث بالضبط مع النصارى؟..

التفاعل مع الكتاب بلا شروط على الإطلاق

الذي حدث كان العكس تماماً مما حدث مع اليهود..

فمع بني إسرائيل، كان الأساس هو القلب الأغلف،

الذات المنغلقة المصفحة ضد أي محاولة إعادة صياغة وبناء.. وكان أن أنتج تعاملاً مع الكتاب أخضع الكتاب لهذه الذات المنغلقة، وليس العكس..

مع النصارى، كان الأمر بشكل معاكس، كانت الذات مستلبة تماماً، منفتحة على الآخر بلا حدود، بلا ضابط ولا شرط.. كانت الذات متماهية تماماً مع ذات الغير، تهرع على آثار الغير وخطواتهم بغض النظر عن المحطة الأخيرة للطريق.. إنه آلية التعامل مع الكتاب، ليس عبر الذات المنغلقة كما مع بني إسرائيل، بل عبر ذات الآخرين، عبر الذات المنتصرة.. الذات الأكثر هيمنة... إنه إخضاع الكتاب مرة أخرى لذات أخرى.. هذه المرة لذات الآخرين.. وإعادة قراءة الكتاب، وتركيب مفاهيمه لينسجم مع تلك الذات..

إنه إخضاع الكتاب للعالم، بدلاً من إخضاعه للذات في حالة بني إسرائيل.. وبدلاً من أن يتم الهدف المطلوب: أن يكون الكتاب وسيلة لإعادة بناء العالم..

* * *

أين الآية التي تشير إلى ذلك..؟

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٩/٣٠]..

﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [التوبة: ٩/٣٠]..

هذه الآية هي جوهر تعاملهم مع الكتاب..

وهذه الآية هي التي تختصر تاريخ نشوء المسيحية بالشكل الذي نعرفه اليوم.. ومرة أخرى هذا الكلام هنا ليس من أجل النقد، بل من أجل الانتباه إلى عدم تكرار الخطأ..

* * *

"مضاهاة الذين كفروا" أو "اتباع آثارهم"، الهروع إليها، هي جوهر ما حدث مع النصارى، عندما تعاملوا مع الكتاب عندهم..

فلنتنبه هنا، إلى أن اليهود، رغم تعنتهم وتحجرهم على ذواتهم، كانوا يمرون، وقت بعثة السيد المسيح، بواحدة من فترات اضطهادهم، فقد كانت أراضيهم محتلة من قبل الرومان الوثنيين المنتصرين..

حمل بولس الذي تصدر للدعوة بعد رفع السيد المسيح الذات السلبية هذه معه، وضاق في الوقت نفسه ذرعاً بتحجر التعاليم اليهودية وكهنتها، رأى أن حمل هذه التعاليم إلى الناس؛ إلى الأمم (من غير اليهود) سيكون عبئاً ثقيلاً، في ظاهر الأمر بدا أمر (الختان) عقبة شائكة عليه أن يتخطاها، وكان كهنة اليهود يعدونه بمثابة جواز مرور لكل من يتهود، وكان ذلك صعباً من الناحية العملية؛ أي إجراء الختان بالنسبة للبالغين..

لكن في باطن الأمر كان الأمر أكثر صعوبة وأعقد. من كان يمكن أصلاً أن يؤمن بالتعاليم اليهودية بينما اليهود

يعيشون حالة استلاب وذل ويعيشون تحت ظل الاحتلال الروماني؟.. ألا يفرض (الدين الصواب) أن يكون معتنقوه بوضع أفضل، لو أنهم فهموه بشكل صائب، على الأقل؟..

كان بولس يعلم أن لا فرصة لذلك، لذا فقد وضع نصب عينيه (الدعوة) - إن جاز التعبير - أو جمع الناس، أكبر عدد ممكن من الناس، بغض النظر عن صواب أو خطأ ما يجمعهم عليه..

هنا كانت مضاهاة الذين كفروا، صار على (الكتاب) أن يلبس لبوس ما حوله من عقائد وثنية من أجل أن يكون مقبولاً عند أصحابها.. بالذات عندما يكونون أصحاب القوة والهيمنة..

وهكذا فإن عقائد الفداء والألوهية والتثليث، تسربت، بالتدريج، من ثقب الاستلاب أمام الآخر، بحجة كسب هذا الآخر..

وهكذا، فعندما أعلن الإمبراطور قسطنطين، بعد حوالي ثلاثة قرون من كل ذلك، الديانة المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، فإنها كانت لا تشبه بشيء الدعوة التي نادى بها السيد المسيح، بل كانت بمثابة ديانة توليفية تجمع بين العقائد والمعتقدات التي كان حوض البحر المتوسط يعجّ بها.. والتي كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليها..

وهكذا فقد كانت تلك التوليفة مزيجاً يرضي معظم الأطراف..

باستثناء الطرف الأهم: الحقيقة..

آلية التعامل مع الكتاب، التي يهرع فيها المتلقي على آثار الآخر، ليركب مفاهيم الكتاب بما ينسجم مع هذا الآخر، ولو بالانتقائية أو الحذف أو التناقض، هي في حقيقتها منزلق خطير، ولا سيما عندما يكون هذا "الآخر" الذي نعدل الكتاب حسب مفاهيمه، منتصراً، مهيمناً، متفوقاً... ونكون نحن على الطرف الآخر من ذلك كله..

وبين ذات غلفاء كالصوان، تعيد تدوير الكتاب ليصب في انغماسها بذاتها، وذات مفتوحة بلا حدود، متحدة مع الآخر، تعيد تركيب الكتاب ليتصالح مع عالم لا ينبغي الصلح معه..

وبين هذا وذاك، تضيع تلك الآلية - الصواب..

الآلية التي تستند إلى الكتاب، مرجعاً ومرشداً وبوصلة ومناراً، لتعيد تحوير الذات، لتعيد بناءها من أجل أن تؤدي ما خلقت من أجله، وتعيد، خلال ذلك، إعادة بناء العالم..الآلية التي تتفاعل مع الكتاب بشروط من الكتاب نفسه: لا بشروط مفروضة عليه من ذات مغلقة، ولا من دون شروط على الإطلاق..بل بشروط تتحكم بالتفاعل مستمدة منه..

إنها الآلية التي تجعل من الكتاب نعمة "فاعلة":آلية تعبد الصراط، نحو عالم آخر..

عالم أكثر عدالة وتوازناً..

* * *

الخاتمة: افتح عينيك على العالم

علي أن أقر، أني لم أكن أفهم الحكمة من ذلك النهي النبوي الشريف عن إغماض العينين في الصلاة..

عدم فهم الحكمة لا يعني قطعاً، ولا بأي شكل من الأشكال، عدم الالتزام بهذا النهي والتقيد به.. لكني أقر، أني لم أكن أفهم فحواه، فإغماض العينين، يساعد على التركيز، على التأمل، وكلها مقدمات طبيعية لما نوليه أهمية كبيرة - عن حق -: الخشوع.. كان هناك النهي.. ويكون هناك الالتزام.. وربما عندما نتأمل في الأمر نجد تلك الحكمة..

* * *

الآن أفهم تلك الحكمة، الراسية مثل جذور جبل شامخ في الأرض، فإغماض العينين، ولو بنية التأمل والخشوع، يتيح لك الدخول إلى عالم افتراضي، عالم خارج واقعك المحسوس.. يتيح لك فرصة الهرب من العالم المحيط بك.. بكل ما فيه مما يستدعي الهروب..

إغماض العينين، يمنحك ذلك، ولو لدقائق.. ولو بنية التركيز والتأمل.. ولو من أجل الخشوع..

لكن لا !..

الصلاة، أبداً ليست من أجل الهروب من العالم، ليست من أجل التسلل من هذا الواقع..

إنها على العكس، من أجل الولوج فيه ..من أجل اقتحامه.. إنها من أجل مواجهته بكل ما فيه..

من أجل ذلك: لا تغمض عينيك في الصلاة، بل افتحهما على اتساعهما.. افتحهما جيداً على العالم بكل ما فيه.. ربما يكون ذلك أقل تركيزاً بالمعنى الذي نفهمه من التركيز، لكنه سيكون أكثر تصويباً نحو الهدف، أكثر تركيزاً عليه..

لن تستطيع أن تغير العالم، وما فيه.. إذا كنت تغمض عينيك.. وتقضي الوقت في تأمل عالم آخر.. افتحهما إذن، على وسعهما ، على أقصى ما في وسعك من وسعهما..

وصلِّ وهما كذلك..

إنما خلقت العينان من أجل ذلك!..

* * *

الآن أفهم هذا كله، بعد "الفاتحة"..

الفاتحة لم تعد مجرد فاتحة الكتاب.. لم تعد مجرد سورة ابتدأ بها القرآن، نسميها فاتحة الكتاب، بل صارت تحوي، في داخلها، على إمكانيات كامنة "للفتح"..

ستكون الفاتحة، إذا سمحت لها طبعاً، إذا سمحت لها بالقيام بدورها، فاتحةً لعينين، ستفتح عينيك كما لم يفتحهما شيء من قبل، ستكون لك رؤيتك للعالم من حولك، لن تزيفه وتزوقه وتقدمه بلون وردي ساذج، ولكنها لن تسوده وتبالغ في عتمته لتحبطك..

والأهم من ذلك أنها لن تجعلك تهرب منه - لن تجعلك تشيح بوجهك عنه، نحو عالم افتراضي في خيالك..

لا، إنما ستفتح عينيك عليه، وستضعك أمامه كما هو..

* * *

وستكون الفاتحة أيضاً، فاتحةً لعينيك على ذاتك، على دورك في هذا العالم، على "توصيفك الوظيفي" الذي جئت على أساسه إلى هنا.. إنك لم تأت من العدم، ولم تأت من أجل العدم، لم تخلق عبثاً، ولست وليد المصادفة، ولست سليل القرود أو التطور.. لقد خلقت بهدف ومن أجل هدف..

ستفتح الفاتحة عينيك على الجدل بين ذاتك كما هي، تلك التي شكلها العالم من حولك، وذاتك كما يجب أن تكون.. التي يجب أن تعيد تشكيل العالم، كما يجب أن يكون..

ستفتح عينيك على جدل الذات والعالم، وما يجب أن تكون، وما هو كائن فعلاً..

* * *

ستفتح الفاتحة عينيك على عالم آخر، ليس خيالياً، وإن كان لم يتحقق بعد، ليس افتراضياً وإن كان الطريق إليه لم يعبد بعد، ليس مستحيلاً لكن الوصول إليه بالتأكيد صعب..

إنه عالم أكثر عدالة وتوازناً، أكثر تماسكاً وانسجاماً، أكثر خصوبة وأصدق نماءً.. إنه العالم الذي يبنيه الإنسان حقاً، ليكون حاضنة للإنسان حقاً..

إنه عالم جديد فعلاً، لكنه ليس حلماً من أحلام الحالمين ولا وهماً من أوهام الواهمين..

إنه عالم جديد "ممكن" وهو ممكن بالذات لأنك يمكن أن تبنيه.. أن تساهم في صنعه وتشييده.. وأنت بما تملكه من كتاب أحق من غيرك بالمناداة به..

إنه ممكن بك، لو آمنت بنفسك، وبدورك، لو آمنت أن دورك في هذا العالم هو أبعد ما يكون عن تلك القصة الصغيرة التي زججت بنفسك فيها، بل هو جزء من قصة كبيرة هي محور الخلق كله..

إنه عالم جديد "ممكن".. لكنه مشروط بقبولك لدورك في الحياة..

* * *

ومع أنها شديدة الهدوء، إلا أنها أيضاً، وضمناً، "تفتح" النار على العالم القديم وأركانه ومؤسساته..

إنها عندما تمدك بالرؤية الصواب، تجعلك ترى، ربما للمرة الأولى، كم هو مزيف وهشّ ذلك العالم الآخر، مع ناطحات سحابه وهيمنته وبهرجه ولمعانه.. ما دامت أسسه غير راسخة، ما دامت أركانه مجوفة..

تفتح الفاتحة النار على ذلك العالم ومفاهيمه، مع أن

طريقه سيبدو مأموناً أكثر، ومأهولاً أكثر، ومع أن كل إشارات الطريق ستدل عليه..

لكن "الفاتحة" تجعلك تنظر إلى الهاوية التي تلي القمة، إلى الدرك بعد الصعود..

الفاتحة لا تكتفي بفتح النار على العالم القديم، بل هي تمهد "للفتح".. تمهد لكي تشارك بافتتاح العالم الجديد..

* * *

لا بد من الكتاب..

ولا بد من آلية تعامل صحيحة معه..

* * *

لهذا كله، إنها "الفاتحة"..

فاتحة الكتاب، لأن كل الكتاب سنفهمه بشكل مختلف أكثر فاعلية، لو فهمناه من خلالها..

فاتحة العينين، لأنها ستمنحك الرؤية لما يجب أن تراه، رؤية تنأى عن التفاصيل لصالح المشهد كله، فإذا بك إنسان آخر، وإذا بالعالم عالمٌ آخر، وإذا بالعالم الذي عليك بناؤه عالم جديد وممكن..

وهي فاتحة للحياة، وليس للموت، علينا أن نكتبها في أثناء رحلة حياتنا، أن نمارسها في أثناء ذلك - لا أن تختتم حياتنا بها، ويقرأها الآخرون علينا.. وتكتب على شواهد قبورنا..

إنها فاتحة للحياة: تمنح الحياة للقلب - الجوهر،

وتتفتح الروح بها، تستمد منها القوة والعزم، ويسير فيها وعبرها النسغ الصاعد، اللازم للبناء..

بناء ذلك العالم....

عالم جديد ممكن..

آمين..

دمشق ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٨هـ

الموافق ١-١- ٢٠٠٨م



مستخلص

سلسلة كيمياء الصلاة بحلقاتها الخمس تركز على الصلاة بصفتها عملية نعيد تشكيل أنفسنا من خلالها. وهي العملية اللازمة والضرورة التي تساعد الإنسان على أداء ما خُلق من أجله: إعمار الأرض.

الصلاة في هذه الحلقات هي تجسيد شعائري وعملي لكل معاني النهضة والنهوض التي هي جوهر الإسلام. ومن خلال تمثل هذه المعاني – عبر الصلاة – فإن فكر النهضة سيهبط من رفوف الكتب وأفكار المثقفين ليلتحم بأرض الواقع. إنها الحلقة المفقودة بين ما نحن عليه فعلاً، وما يجب أن نكونه.

في (عالم جديد ممكن)، الحلقة الثالثة من هذه السلسلة، يسلط الضوء على سورة الفاتحة باعتبارها السورة المركزية في الصلاة. الحلقة تتألف من مقدمة وثمانية فصول وخاتمة، ومن خلالها نرى دور سورة الفاتحة في تشكيل رؤية جديدة للعالم؛ رؤية تبتدئ بمعرفة الله سبحانه وتعالى كما يعرف هو عن نفسه، ومن ثم تحدد طبيعة علاقتنا به، وبعد هذا سيكون تحديد موقعنا من هذا العالم من خلال رؤية أخرى، هي الرؤية الحق والصواب البعيدة عن رؤية الإفراط في (المغضوب عليهم)، ورؤية التفريط في (الضالين).

Abstract

This series, *"Chemistry of Prayers"*, with its five episodes, highlights the prayer which is practical for reformulating our own selves. It is the essential practice and the necessity which helps the human do the things for which he/she was created; i.e., building the Earth.

In these episodes prayer is a ritual and workable incorporation of the meaning of revival and resurgence which constitute the essence of Islam. If we assimilate these meanings – through prayer – the thought of the revival will surely get off the racks of the books and the ideas of the intellectuals and unite with reality which represents the lost circle between the life we really live and what we have to be.

Episode Three of this series, *"A Possible New World"*, highlights the Opening Chapter [*al-Fatihah*] for being the central *Surah* in prayer. This episode consists of an introduction, eight chapters and a conclusion. It reveals the role of this Surah in forming a new view of the world, which starts with getting acquaintance with Allah, the Exalted and the All-High, the same as He is acquainted with Himself. Then it identifies our relation with Him. After that, our position in this world will be determined through another view, represented in viewing truth correctly away from the view of exaggeration – in "Not the path of those who earn Your anger" – and the view of negligence in "Those who go astray".

A Possible New World
'Ālam Jadīd Mumkin
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

كيمياء الصلاة ٣
عالم جديد ممكن

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

هذه الحلقة تسلط الضوء على السورة المركزية في الصلاة، سورة الفاتحة، التي يرددها المسلم سبع عشرة مرة في اليوم، والتي هي عماد الصلاة والمدخل الأساسي للقرآن الكريم في الوقت نفسه. الفاتحة هنا لن تكون فاتحة كتاب فقط، بل ستكون فاتحة للعين المسلمة على عالم جديد، ستكون فاتحة لأبواب هذا العالم كي يدخله فرد يتماهى مع هذه الرؤية ويعيد بناء العالم من خلالها. الفاتحة، في الصلاة تجمع خيوط ذلك، إنها تحدد العلاقة الأهم في حياة كل منا، علاقتنا مع الله عز وجل، وهي العلاقة التي ستحدد بدورها علاقتنا مع ذواتنا، ومن ثم مع العالم من حولنا. هذا التداخل بين العلاقات هو الذي سيجعلنا نساهم في بناء ***عالم جديد ممكن***.


ISBN -9953-511-68-3
9 789953 511689

تصميم الغلاف: يمان بطيخة